الباب الخامس

المنهج العلمي

"إن العلم هو علم محمد ﷺ، في ميراث محمد ﷺ"

"ابن تيمية"

obeikandl.com

في الباب الحالي فصول ثلاثة تحاول تصوير منهج الإمام الصادق "العلمي"، و"الحضاري" "السياسي والاقتصادي"، كما رسم خطوطه بالفعل وبالقول، وكما اقتفى آثاره وبنى عليه علماء الإسلام، الفقهاء منهم والرياضيون والتطبيقيون، مستمتعين بحرية الفكر والبحث التي وردت بها نصوص الكتاب العزيز وأمرت بها السنة. وكان الإمام الصادق من الأوائل في تعليمها للمسلمين، ممن انتسبوا إليه وممن أخذوا عنهم. يستوي في ذلك الشيعة وفقهاء أهل السنة.

وعلى هؤلاء الفقهاء والعلماء تعلم أهل أوروبة منهج النزاعة العلمية والواقعية الذي تبلور في طريقة "التجربة والاستخلاص" والذي أعلنه جابر بن حيان، أول من استحق في العالم لقب كيميائي كما يعبر عنه الأوربيون.

ومن المنهج الحضاري: المنهج السياسي والاقتصادي الذي يستهدف عمارة الدنيا بالعدل في الناس، والعمل للحياة، والتكافل بين أعضاء الجماعة، والسعي لاستثمار طاقات الناس وأموالهم – وهي قواعد بلغ بها الفقه الشيعي غايته، ابتداء من منهج أمير المؤمنين علي، معمولا به في حياته أو خلافته، أو منصوصا في عهده للأشتر النخعي، وكله سياسة واجتماع واقتصاد، إلى رسالة حفيده زين العابدين في الحقوق، وهي تجري في آثاره، إلى برنامج حفيده جعفر الصادق العلمي والحضاري والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، يدلي به للناس، ويطبقه بنفسه، ويضع به الأسس لدول أو مجتمعات، أو جماعات، أو جمعيات، تعمل بمنهاجه لتبلغ أوجها به.

وهذه خصيصة لا يجاري الصادق فيها عالم من العلماء في التاريخ.

وحسبنا في هذا المقام كلمات، كالإشارات، تضمنتها الفصول الثلاثة التي حواها هذا الباب.

الفصل الأول

التجربة والاستخلاص

أما إذا خرجت من الإنكار إلى منزلة الشك، فإني أرجو أن تخرج إلى المعرفة.

"جعفر الصادق"

لو أتيح لي الأمر لحرقت كتب أرسطو كلها، لأن دراستها يمكن أن تؤدي إلى ضياع الوقت وإحداث الخطأ.

روجير بيكون "١٢٩٤ ميلادية"

لم يكن روجير بيكون في الحقيقة إلا واحدا من رسل العلم الإسلامي والمنهج الإسلامي إلى أوروبة المسيحية.

"روبر بريفو"

أتيحت للإمام الصادق حقبة طويلة للتعليم يتلقاه أو يلقيه. فلم يحبس كمثل ما حبس الكثيرون من أهل بيته، أو يقتل كما قتل عظماؤهم.

أتيحت للإمام الصادق حقبة طويلة للتعليم يتلقاه أو يليه. فلم يحبس كمثل ما حبس الكثيرون من أهل بيته، أو يقتل كما قتل عظماؤهم.

obeikandl.com

ولم يصطدم مذهبه الفقهي بمذهب فقهي للسلطان. فبنو أمية وبنو العباس، حتى عهده، لم يكن لهم مذهب فقهي – أن لم تظهر المذاهب "رسميا" إلا في أخريات القرن الثاني للهجرة، عندما صير أبو يوسف مذهب أبي حنيفة مذهب السلطان. واستعصمت المدينة بفقهها، ثم ظهر الشافعي في أواخر القرن الثاني.

ولم يصطدم الإمام بمذهب سياسي للخليفة – أن لم يظهر اعتناق الدولة للاعتزال إلا في عصر المأمون في فاتحة القرن الثالث.

وكان الجهميون والقدريون مستضعفين. ولم يكن لمناقشات أصحاب الملل والنحل شأن يستلفت النظر.

بهذا أتيح للإمام في مجلسه العلمي، واقتداره الذي يسلم به الجميع، أن يرسي في أمنة واطمئنان، قواعد "منهج علمي" ما يزال يعبر القرون باعتباره فتحا من الفتوح التي فتحها الله على البشر.

وفحوى المنهج أن العلم "مشاهدة" و"نزاهة فكرية" في "استخلاص" النتائج لا يقبل الله سواها من عالم أو متعلم.

في هذا الفحوى قول الإمام: "اطلبوا العلم. فإنه السبب بينكم وبين الله".

والسبب إلى الله لا يقوى إلا بقلب خاشع. ومن ثم وجب إخلاص النية فيه، وصدق الهمة في تلقيه، وقبول حقائقه دون تلويثها بشوائب الهوى أو الغرض أو المقررات السابقة، أو العوامل الخارجية.

وبهذه الخصائص تصبح "النزاهة العلمية" سمتا للعبادة وشأوا للسيادة – يقول الإمام: "الملوك حكام على الناس والعلم حاكم عليهم.. حسبك من العلم أن تخشى الله.وحسبك من الجهل أن تعجب بعلمك".

ولتحقيق ذلك يأمر الإمام طالب العلم – من بدء أمره – بالتحلي بخصال. وينهاه عن نقيضها.

يقول: "لا تطلب العلم لثلاث: لترائي به ولا لتباهي به ولا لتماري به. ولا تدعه لثلاث: رغبة في الجهل وزهادة في العلم واستحياء من الناس". وما المراء أو الإصرار على عدم المعرفة أو تحقير العلم أو خوف النقد إلا خروق واسعة تتساقط منها كنوز العلماء، ومواهب المتعلمين، وواجب الفرد في أن يتعلم، في أمة فرض رسولها العلم على كل مسلم ومسلمة. فالعلم في الإسلام طريق للبقاء والتقدم.

يقول لمحمد بن النعمان "مؤمن الطاق". وهو المناضل الجدل: "يا بن النعمان: إياك والمراء فإنه يحبط عملك. وإياك والجدل فإنه يوبقك. وإياك وثرة الخصومات فإنها تبعدك من الله. وإن من قبلكم كانوا يتعلمون. وأنتم تتعلمون الكلام.. إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء..

إن أبغضكم إلي المترئسون، والمشاءون بالنمائم، والحسدة لإخوانهم. وإنما أوليائي الذين سلموا لأمرنا واتبعوا آثارنا.

وليست البلاغة بحدة اللسان ولا بكثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة". ويضيف.

"يا بن النعمان. إن أردت أن يصفو لكود أخيك فلا تمازحنه ولا تجارينه ولا تباهينه.ولا تطلع صديقك من سرك إلا على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك. فإن الصديق قد يكون عدوك يوما..".

ومن أدوات المنهج طمأنينة المعلم والمتعلم، بالاستغناء عن الناس. فالإمام يحث تلاميذه على العمل للرزق، ويمدهم بالمال، ليتجروا، ويستغنوا عن الناس ليستمع إليهم الناس. وليقدروا على الاستمرار في التلقي وفي الإلقاء.

ومن أدواته التعمق والتخصص. فالعلم لا يعطيك بعضه إلا أن تعطيه كلك، كما يقول أبو يوسف:

فأبان بن تغلب وزرارة بن أعين متخصصان للفقه. يفتيان الناس في مسجد الرسول.

وحمران بن أعين حجة في علوم القرآن.

ومؤمن الطاق للكلام – علم التوحيد.

وهشام بن الحكم للكلام في العقائد وفي الإمامة.

وأبان بن عثمان للكلام في الاستطاعة وما إليها.

والمنهج شامل: يسأل الإمام عن قوله تعالى: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا)، فيقول: "الحكمة هي المعرفة والتفقه في الدين".

ولما جمع للحكمة المعرفة والتفقه في الدين كان يعلم الناس أن الفقه وحده ليس الحكمة وإنما هو درجة فيها. وهو القائل: "تفقهوا في الدين فإن من لم يتفقه منكم فهو أعرابي".

ولما جعل مطلق المعرفة بعض الحكمة فتح الباب لكل أنواع العلوم فليست المعرفة قاصرة على العلم الديني. فهذا ينفيه نصه على التفقه في الدين معها.

وإنما قصد الإمام العلم عموما. ومنه العلوم التطبيقية والفلسفات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كان لها في مجالس الإمام الصادق مكان، هو أول مكان تلقاه في حلقة إمام للدين في مدارس الإسلام. كمكان جابر بن حيان. وهذه التفرقة بين ألوان المعرفة يوجبها المنهج العلمي على الدارسين.

وهذا الجمع لشتى العلوم إيذان بتطبيق المنهج الإسلامي في فنون العلم العالمي كما سنرى بعد.

وللمنهج – بعد – شعار من حب رسول الله،وتقدير أصحابه "محمد رسول الله والذين معه". فلا يقبل العلم من رجل، أو يقبل العلم على رجل، قصر إيمانه عن صيانتهم.

يقول الإمام لجابر الجعفي: "أبلغ أهل الكوفة أني برئ ممن يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأرضاهما".

فهذا العلم دين. والمجلس العلمي كمجالس العابدين. والشيخان، وإن خالفتهما نظريات الشيعة،محل إجلال المسلمين.

وكمثل الشيخين في حفظ الكرامة. عثمان بن عفان. وهم جميعا – كعلي بن أبي طالب – أصحاب بل أصهار لصاحب الشريعة. وتعليم الشريعة أول أعمال الإمام. والإمام سيد عصره. لا تسقط من حضار مجلسه كلمة نابية.

بهذه النزاهة الفعلية والفكرية، وبالإخلاص للمعرفة، والتزام قيم الإسلام. استعمل الإمام الصادق "العقل" أصلا من الأصول، إلى جوار القرآن والسنة والإجماع.

والنص على العقل واستعماله مستمد من القرآن الذي طالما خاطب فطرة البشر "لتعتبر" بما تدركه الحواس من آيات الله، وتتدبرها، وتستصحبها، لترى آلاءه على عباده، وتشهد تقديره وتدبيره، فتنفعهم بوجوده ووحدانيته وقدرته، فتصبح الدليل ما بعده دليل[١٠٦].

وكما استعمل "الصادق" العقل، استعمل الحرية، التي منحها القرآن للإنسان: لا يكره الناس على أن يكونوا مؤمنين، ولا يستعمل في جدالهم إلا التي هي أحسن. ولا في وعظهم إلا الموعظة الحسنة. حتى ثبوت الألوهية لا يرضاه الله بإكراه.

---

(١٠٦) القرآن والمنهج العلمي المعاصر – للمؤلف – طبعة دار المعارف ص٣٠ وما بعدها.

obeikandl.com

والعقل لا يعمل إلا حرا. وإذا أكره تعطل أو انحرف. والجدال بعنف تعسف. وللعقل كرامة. والكرامة هي الحرية.

والاعتبار بالآثار والأشياء المحيطة بالناس، بالمشاهدة والاستخلاص، ثم الحرية والأمانة في التفكير والتقدير، أي النزاهة الفكرية، هما صميم المنهج.

وهو لا يتجلى قدر ما يتجلى في الدلالة على الله جل ثناؤه.

إليك مثلا من زنديق تحداه بقوله: كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟ – قال الصادق: "رأته القلوب بنور الإيمان. وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان. وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف. ثم الرسل وآياتها، والكتب ومحكماتها، واقتصر العلماء على ما رأوا من عظمته دون رؤيته".

فلنلاحظ أنه يبدأ بآثار الله التي يراها الناس في نور الإيمان، ويثبتها العقل والبصر. ثم يثني بالرسل اللافتين أنظار الناس إلى آيات الله، وبالنصوص المحكمة التي جاءوا بها. وأخيرا يذكر ما يحصله العلم المحدود بما يراه العلماء من آثار ذلك.

لكن الزنديق يستمر: أليس هو قادرا أن يظهر لهم. فيعرفوه فيعبد على يقين؟ قال الصادق: "ليس للمحال جواب". قال الزنديق: فمن أين أثبت أنبياء ورسلا؟ قال الصادق: "إنا لما أثبتنا أن لنا خالقا صانعا متعاليا عن جميع ماخلق، وكان ذلك الصانع حكيما، لم يجز أن يشاهده خلقه أو يلامسوه.. ثبت أن له سفراء في خلقه وعباده يدلونهم على مصالحهم..".

ومثلا مما يروي محمد بن سنان "حدثني المفضل بن عمر قال: كنت ذات يوم بين القبر والمنبر – قبر الرسول بالمدينة – وأنا أفكر فيما خص به الله تعالى سيدنا محمدا ﷺ... إذ جاء ابن أبي العوجاء فجلس بحيث أسمع كلامه... فخرجت من المجلس محزونا متفكرا فيما بلى به الإسلام وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها. فدخلت على مولاي، عليه السلام، منكسرا فقال: مالك؟ فأخبرته. فقال: بكر علي غدا.. فلما أصبحت غدوت فاستؤذن لي فجلست وقمت بين يديه فقال:

"إن الشكاك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة، وقصرت أفهامهم عن تأمل الصواب والحكمة، فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود.. فهم في ضلالهم وتجبرهم بنزلة عميان دخلوا دارا قد بنيت أتقن بناء وفرشت بأحسن الفرش.. ووضع كل شئ من ذلك موضعه.. فجعلوا يترددون فيها يمينا وشمالا.. محجوبة أبصارهم عنها.. والإنسان كالمالك لهذا البيت.. ففي هذا دلالة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملاءمة، وأن الخالق له واحد..".

وهو هنا يدلل بما تلمسه الحواس على لزوم وجود ما لا تلمسه. فهو يستعمل العقل والواقع معا.

ويروي ابن بابويه (٣٨١): "كان ابن أبي العوجاء وابن المقفع يلاحظان الجمع الذي كان يطوف بالكعبة فقال ابن المقفع لأصحابه: لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية إلا هذا الشيخ الجالس – وأشار إلى جعفر بن محمد – فقام ابن العوجاء إلى الشيخ، وتحدث معه ثم رجع إلى صاحبه وقال: ما هذا ببشر. إن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهرا، أو يتروح إذا شاء باطنا، فهو هذا.. ظل يحصي لي قدرة الله التي في نفسي، والتي لم أستطع رفضها، حتى ظننت أن الله قدنزل بيني وبينه".

ونزول الله بين الإمام وبين ملحد، باعتراف الملحد، آية باقتدار المنهج على بلوغ غرضه، وقدرة مجادل جمع الآيات الربانية حججا بين يدي منكر أخذته حجة الأمر الواقع فأبلس.

فإذا تصدى الإما لأصحاب الأغلوطات أزرى بالسفسطات. وبدههم – كدأبه – "بالواقع" فبهتتهم – كأن لم يشهدوها قبل – حقائق الأمر الواقع.

طلب واحد من تلاميذه بيانا عن قول أبي شاكر الديصاني – رئيس الطائفة الديصانية – وهي طائفة ملحدة تنعم بحرية العقيدة في بلدان الإسلام – إن في القرآن ما يدل على أن الإله ليس واحدا. ففيه (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) فأجاب الإمام بقوله: قل له: ما اسمك في الكوفة؟ فيقول: فلان. فقل له: ما اسمك في البصرة؟ فيقول: فلان. فقل له: فكذلك ربنا في السماء إله وفي الأرض إله وفي البحار إله وفي كل مكان إله.

* * *

وفي كتاب الإهليلجة المروي عن طريق المفضل بن عمر يستعمل الجدل العلمي، في تنبيه الشكاك على أنهم في بداية الطريق نحو المعرفة يقول: ".. أخبرني هل رقيت إلى الجهات كلها وبلغت منتهاها؟.. فهل رقيت إلى السماء التي ترى أو انحدرت إلى الأرض السفلى فجلت في أقطارها.. فما يدريك لعل الذي أنكره قلبك هو بعض ما لم تدركه حواسك ولم يحظ به علمك.. أما إذا خرجت من الإنكار إلى منزلة الشك فإني أرجو أن تخرج إلى المعرفة".

فلنلاحظ أنه يجادل الرجل بأن يرتفع من الإدراك المادي إلى حيث يفكر، وأنه يرفع المفكر إلى حيث يستيقن، فيطالب الشاك بمزيد من التجربة المحسوبة الملموسة، ليصل من الشك إلى المعرفة، وهي مراحل العلم الذي يصل إليه الناس بوسائل مأمونة ومجربة.

وهذا المنهج "الواقعي" القائم على النزاهة الفكرية والحرية العقلية هو الآن منهج عالمي،يدين به الجميع للقرآن وأصول الفكر الإسلامي على ما سنرى بعد[١٠٧].

---

(١٠٧) والارتباط بين فروع المعرفة أحد "الأساسيات" العلمية، وهي جميعا تستعمل الطريقة التجريبية وتلتزم حقائق الحياة الواقعية وقوانين الكون التي لا تتخلف ولا تدع مجالا للفراغ أو المجازفة أو الصدفة. كل شئ بمقدار. وكل أمر موزون – في الإنسان والحيوان والنبات والجماد. وفيما بينها. وفي العلوم الطبيعية والرياضية وفي العلوم الاجتماعية والإنسانية. والعلميون يستعملون مقولات: الوحدة والتفاضل والتكامل. واطراد العلل والنتائج. والآخرون يستعملون مقولات الوحدة، والتناسب والتناسق، والتزاوج والانسجام. في الأشياء والأشكال والألوان والأحجام. ويستوي في ذلك الذين يلتزمون بالدين أو الذين يلتزمون بإنكاره.

obeikandi.com

ففي حين استخلص علماء العالم القديم من اليونان "نظريات" عمموها ليخضعوا لها نتائج الاستنباط، وفرضت سيادة الفكر الارستطاليسي على العقل في أوروبة منطق النظريات والعمومات، وقاومت الكنيسة في تاريخها القديم حرية التفكير. نرى القرآن ينبه "العقل" على الاعتبار بالمحسوس الذي يتمثل في "الواقع" وأن يرفض الاستسلام للعمومات التي تحكم مقدما أي أمر واقع، ويرشد الإنسان إلى استعمال فكره "بحرية" من أي قيد.

بل نرى الإمام الصادق يعتبر "التقليد" مذلة عقلية "واستعبادا للنفس"، ويحاجج في ذلك القرآن، ويفسره تفسيره الرائع.

عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق في معنى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال: "أما والله ما دعوهم إلى عبادة، ولو دعوهم ما أجابوهم. ولكن أحلوا لهم حراما وحرموا عليهم حلالا. فعبدوهم من حيث لا يشعرون". وفي تعبير آخر يقول: عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال: "والله ما صاموا لهم ولا صلوا. لكن أحلوا لهم حراما وحرموا عليهم حلالا فاتبعوهم". فالاتباع دون فهم، في الحلال والحرام، أو غيرهما، ترك لزمام النفس في قبضة الغير، وإهدار لحريتها وقدرتها، وتلك عبادة لغير الله. وليس بعد ذلك كفر.

ومن الموضوعية "سلطان الإرادة" الإنسانية في التعاقد، أي حريتها، مع تقيدها بالقانون الذي يجتمع عليه الناس. وهذا مظهر الحرية الشخصية والفكرية التي أتاحها الله لعباده وأمرهم أن يستعملوها لأنها وسيلة للحياة الكريمة وللتقدم، وهو معلم من معالم السبق التشريعي الإسلامي.

obeikandl.com

وليس أبلغ من هذه العبارات في الدعوة للحرية الفكرية والحث على الاجتهاد واستعمال العقل.

* * *

يقول الشافعي عن مكانة علي في علوم الإسلام: "كان علي كرم الله وجهه قد خص بعلم القرآن والفقه لأن النبي ﷺ دعا له وأمره أن يقضي بين الناس. وكانت قضاياه ترفع إلى النبي ﷺ فيمضيها".

ولقد آلى على نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول ﷺ وعلى آله ألا يرتدي إلا للصلاة أو يجمع القرآن – كما أسلنا – فجمعه مهتما بأمور "أصولية" في الشريعة وفقهها تتعلق بالمحكم والمتشابه، أي بما لا يحتمل الاجتهاد وما يحتمله، وبالنصوص التي نسخت والتي هي واجبة التطبيق، وبالمطلق منها والذي يحتمل التخصيص، والعزائم والرخص، وبالفروض والمندوبات، وفيها المحرم والمكروه، وما هو تهذيب للأمة من فضائل وآداب[١٠٨]. وفي نهج البلاغة طائفة من أصول الفقه التي ينبه عليها أمير المؤمنين رضي الله عنه وهذه وتلك أساسيات في أصول الفقه.

---

(١٠٨) بهذا كان علي إمام المفسرين.

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: ألمن قتل مؤمنا متعمدا توبة؟ قال: لا. فتلوت عليه الآية التي في "الفرقان". قال: هذه مكية نسختها آية مدنية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا).

ورووا أن ابن عباس ناظر عليا في الآية، فقال علي: من أين لك أنها محكمة؟ قال: "تكاثف الوعيد". قال علي: إن الله نسخها بآيتين آية قبلها وآية بعدها في النظم. الأولى قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) وأما التي بعدها في النظم فهي قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ومن يشريك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) والمفسرون يضيفون إلى الآيات قوله تعالى: (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق) إلى قوله تعالى: (ويخلد فيه مهانا) ثم استثنى: بقوله (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا)..

لكم صدق ابن عباس حينما سئل عن علمه وعلم ابن عمه "علي" فأجاب: كالقطرة إلى جوار البحر المحيط.

والأصول أدلة في طريق أو نهج. ولا إمامة إلا بمنهج.

والفقه السني يعتبر الشافعي أول من اتجه إلى تجلية أصول الفقه في كتابه "الرسالة" وقد وضعه، والناس يتحلقون حوله، في جوار الكعبة بعد سنة ١٨٤.

وليس غريبا أن نجد النبوغ الشافعي يتلاقى وأمورا أساسية أهمت من بادئ الأمر علي بن أبي طالب. أو نجد أفكارا "علوية" أو آراء "شيعية" تظهر بقوة في مذهب الشافعي وآرائه. والشافعي من أبناء عمومة النبي وعلي، يباهي بحب أهل البيت ويتحدى به. وهو إمام في اللسان العربي. له لغة خاصة تعلنها قواميس اللغة. طوعت له إمامته فيها أن يفهم القرآن فهم الذين نزل فيهم.

واتصال اللغة والبلاغة بالفقه في الإسلام أساسي، لأن الفقه فهم للقرآن والقرآن عربي. فالشافعي في استنباطه للأصول من القرآن كان موجها بفهم عربي عميق للكتاب الكريم، الذي صنعت على أسسه العقلية الإسلامية.

يقول أحمد بن حنبل – وهو الإمام الرابع لأهل السنة في الفقه، فوق أنه إمام في اللغة – "الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة. واختلاف الناس. والمعاني. والفقه". وهذه هي الأمور الأساسية في كل فقه.

وسواء انبثقت الأصول من اهتمامات علي، في جوار قبر النبي بالمدينة غداة صعود روح النبي إلى الرفيق الأعلى، أو ممن نحوا ذلك النحو من الشيعة، أم انبثقت من "رسالة الشافعي" في جوار البيت الحرام بمكة. وسواء اطلع الشافعي على كتب لأهل البيت أو على آرائهم، أم لم يطلع، فالأصول قرآنية المبدأ والمنتهى. مشتقة من نصوص القرآن والسنة ومنهاجها وأسلوبهما. ومن ذلك شرفها في الفكر الديني والعلمي.

وحرية التفكير توجب "الاجتهاد" على أساس العلم كما يقرر الشافعي في "رسالته"، مع النزاهة الفكرية الكاملة، غير مقيدة إلا بما تثق بوجوده، وتحقيق المناط وتنقيحه، والتدقيق في

الفرع وفي الأصل، والسند، فيما ليس قطعي الورود في السنة أو قطعي الدلالة فيها أو في الكتاب العزيز، ومع اتخاذ الأهبة والدربة. وهذه كلها أمور يوجبها القرآن والسنة.

والحضارة العالمية مدينة بهذا المنهج للإسلام بما طور من فكر الأمم التي دانت به، في أربعة عشر قرنا، ومن أساليبها، ووسائلها العلمية، حتى صبغ فكرها، في شكله وموضوعه، صبغة الله. ومن أحسن من الله صبغة!

وكما ارتفع العرب درجات بالإسلام انتفع به كل الأمم ممن أسلموا، وممن لم يسلموا ومن ثمة كان الإسلام خيرا كله للعالم كله. فتلك خصائص رسالته: العالمية. والأبدية. والسمو. والطريق إليه مفتوح حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وما تقدم الإنسانية إلا حاصل دفع الله الناس بعضهم ببعض. وأخذ بعضهم بيد البعض – ومن أجل ذلك اختص الفقه الإسلامي بخصيصة القدرة على إحداث التطور ومواكبته، مع اليسر وحفظ الدين، "بالاجتهاد" الذي أمر به الله على أصول القرآن والسنة[١٠٩].

* * *

أعلن "علي" تمسكه "بالاجتهاد". إذا تولى إمارة المؤمنين بعد عمر بن الخطاب. ومن أجل ذلك وحده. لم يبايع له عبد الرحمن بن عوف وأعلن عثمان التزامه بأن "يتبع" عمل السابقين فجعل عبد الرحمن يبايع له.

"فالاجتهاد" شعار من شعارات "علي" من بادئ الأمر. وشعارات الشيعة من بعده. ومن ذلك لم يصخ عظماؤهم إلى ذلك الصوت البغيض الذي أعلن إقفال باب الاجتهاد في القرن الرابع الهجري. لتتفتح أبواب التقليد، وتخبو شعلة الفكر. بل شهد الشيعة في القرن الرابع ذاته نهضة شاملة تتراءى في أعمال عظمائهم فاستعمال العقل أصل. والأصل لا يتعطل.

---

(١٠٩) كتاب نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي: للمؤلف "طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٤ الفقرات ٣ إلى ٧٣ والفقرات ٩٣ إلى ١٢٧".

وما الاجتهاد إلا الحرية الفكرية في استخلاص النتائج، والنزاهة العلمية أو الاعتبار "بالواقع والصحيح". وهاتان العجلتان اللتان تحملان موكب الفكر الإنساني المنجب، هما شعار مجالس الإمام الصادق كما سلف البيان. بل هما أساس ما استخلصه تلميذه جابر بن حيان. من تجاربه العلمية. وعنه انتقل إلى أوروبة المنهج التجريبي: أو منهج "التجربة والاستخلاص" كما يسمى في العصور الحديثة.

ومن نزاهة المنهج في الفقه، كان الإقرار بضعف الإنسان. فليس الاجتهاد مقابلا للحقيقة، وإنما هو أحسن أداة يمكن أن يصل بها المرء إليها. يقول أبو حنيفة: "علمنا هذا رأي فمن جاءنا بأحسن منه كان أولى بالصواب منا".

ولما قال الشافعي: "الاجتهاد القياس"، وإنهما اسمان لمعنى واحد، واستطرد فقعد له القواعد. ليجري علماء أهل السنة في مضماره. صلى الأصوليون من أهل السنة بعده في حلبة الفكر العالمي. منذ القرن الثاني للهجرة، والتاسع للميلاد فوضعوا القواعد التي لم يبدأ في تعرفها الأوربيون إلا بعد ثمانية قرون تحت عناوين اطراد العلة. وأنها إذا توفرت ثبت الحكم. أو قانون اطراد الحوادث، لوجود "نظام" في الكون. أو تناسق. تخضع له الأشياء. طراد وعكسا، باطراد أسبابها وملابساتها فيها. وهذا ما قرره الأصوليون المسلمون عند تماثل العلل لاستنباط الأحكام.

غير أن الأصوليين المسلمين فاقوا في تمحيصهم "جون ستيوارت مل" في أبحاثه. إذ تعمقوا في مسالك العلة. ودققوا في الاستقراء والاستنباط مع الورع الكامل والنزاهة الفكرية المثلى. فكان عندهم لكل ركن من أركان "القياس" أبحاثه، وضمانات صحته. باتساع الاختبار وامتحان الاستخلاص وإيجاب أن تجمع الأصل "المقيس عليه" "والفرع""المقيس" "علة"، لتنتج ثمرة القياس وهي "الحكم".

وأولى الأصوليون العلة وتخريجها اهتماما مقطوع النظير. فشرطوا لها مسالك نقلية من نص أو إجماع. أو عقلية من تحقيق المناط بوجود العلة، وتنقيح المناط بحذف مالا يدخل في الاعتبار. وبطرائق السير والتقسيم لحصر الأوصاف التي تصلح للعلية، واستبعاد ما لا يصلح منها، ومقاربة الأوصاف للحكم، ودوران العلة مع المعلول وجودا وعدما الخ.. مع تكامل اختبار الوقائع وسلامة النتائج ثم قبولها.

كل أولئك دون دخل لمقررات أو نظريات سابقة. ومع التقرير بأن ما يصل إليه المجتهد ليس الحقيقة وإنما هو الراجح بغلبة الظن. فإن اجتهادا آخر قد يغيره والاجتهاد مفتوح. وقانونه الحرية. فإذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران. وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر.

وعلى هذا التحديد أخذ المنهج التجريبي في الوجود: تمحيص الواقعة والاستخلاص بحرية ونزاهة.

* * *

والقرآن يحوي جميع صور الاستدلالات العقلية ومنها قياس الأولى. وفي هذه الصور تبرز طريقة الاعتبار بآيات الله المادية الواقعية المحيطة بالناس والتي تحسها حواسهم. وكذلك كانت طريقة الأنبياء في الاستدلال على الله بلفت النظر إلى آياته أو بقياس الأولى. وهو ما يكون الحكم المطلوب فيه أولى بالثبوت من الصورة المذكورة في الدليل الدال عليه – وكان أحمد بن حنبل يستعمل هذا القياس. وهو القائل إنه لا يصار إلى القياس إلا عند الضرورة.

وابن تيمية يجعل للفطرة مكانها في الميزان الذي تعرف به الأحكام، ويروي أن معرفة الاختلاف والتماثل أمر فطري. واستعماله ضروري. والميزان عنده هو العدل. وما يعرف به العدل. وأنه هو القياس العقلي القرآني(١١٠).

---

(١١٠) يقول: "فليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام، ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيما للعلوم النبوية، وهذا خطأ. إن العلم هو علم محمد ﷺ وعلم في ميراث محمد ﷺ. وغير هذا العلم لا يكون علما. لقد بين ﷺ – مختتما دورة الرسالة العظمى – العلوم العقلية التي يتم بها دين الناس علما وعملا. وضرب الأمثال فكانت الفطرة بما ينبهها عليه.. ولذلك أتى الخبر من السماء.. القرآن والحديث – بهذا. يبين الحقائق لا بطريقة خبرية فقط بل "بالمقاييس العقلية". فبين طريقة التسوية بين المتماثلين والتفرقة بين المختلفين".

ويضرب ابن تيمية أمثالا من الآيات للتسوية بين متماثلين والتفرقة بين مختلفين. ويقول: "وكذلك أنزل الله سبحانه الميزان في القلوب.. لما بينت الرسل العدل وما يوزن به عرفت القلوب ذلك. فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل والاختلاف وتضع من الآلات الحسية ما يحتاج له في ذلك. كما وضعت موازين النقد وغير ذلك.. قال الله تعالى: (والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان،

والوزير الصنعاني(٨٤٠) صاحب كتاب ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، يذكر أن أئمة أهل البيت لم يعرفوا المنطق "اليوناني والأرسطاليسي" ولم يصوغوا أدلتهم على التوحيد في صور منطقية.. وإنما في "منهج قرآني أساسه الاعتبار". وأن الإمام عليا لم يعرفه في خطبه ومواعظه وأن الأئمة قدموا أدلة التوحيد من غير ترتيب مقدمات المنطق ولا تقاسيم المتكلمين. ويقرر الوزير الصنعاني أن أسلوب المسلمين أرجح وأحجى من أسلوب المناطقة فهذا أسلوب الأنبياء والأولياء والأئمة والسلف في النظر. وخالفهم بعض المتكلمين وأنواع المبتدعة فتكلفوا وتعمقوا وعبروا عن المعاني الجلية بالعبارات الخفية.

والذين ينكرون القياس، من أهل السنة. كداود (٢٧٠) إمام أهل الظاهر وابن حزم (٤٥٦). أو من المعتزلة كالنظام "إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ"، يعتمدون على النص وحده – وقد أسعفتهم النصوص في إقامة مذهب بتمامه. ولم تخذلهم قدرتهم الفقهية في استخراج الفقه باستعمال كليات الشريعة في الاجتهاد.

فدل هؤلاء على أن نصوص الكتاب والسنة تجعل كليات الشرع وقواعده كافية "للعقل" ليبلغ بالفقه الإسلامي مبالغه، فيحقق أن الله تعالى ما فرط في الكتاب من شئ. فلكل واقعة حكم. وعلى المجتهد طلبه بالعقل والنقل معا.

والشافعي من حرصه على العمل بهما معا، يندد "بالاستحسان". ويسميه تلذذا. مع أن الاستحسان في جملة أمره استعمال لنص خاص أو قاعدة متعلقة "بالواقعة" المطلوب لها الحكم[١١١].

وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) فالميزان هو العدل وهو ما يعرف به العدل. وهو القياس القرآني المنزل، ليتعرف به صحيح الفكر من باطله. بالإضافة إلى أن تزن الأمور عامة حسية أو عقلية".

(١١١) كان داود "بن خلف الأصفهاني" صاحب المذهب الظاهري شافعي المذهب ثم صار ظاهريا ينكر القياس ويعتمد على النص وحده. قالوا: إنه سئل لم تركت مذهب الشافعي قال: قرأت كتاب إبطال الاستحسان للشافعي فوجدت كل الأدلة التي يبطل بها الاستحسان يبطل بها القياس.

وأهل القياس مجمعون على أن المنهي عنه هو الاجتهاد مع النص القطعي، أو إطلاق العنان لاستخراج الأحكام دون تقيد بالنصوص الخاصة أو العامة. وهم يجمعون على قياس العلة ويختلفون فيما عداه.

* * *

ومن المعاني الجامعة التي تتردد في أبواب الاجتهاد أن أحكام الشريعة جميعا – حتى في الأعمال غير التعبدية – فيها معنى تعبدي. أي حق لله، يطاع فيه الله ويعبد. فمن أسن بيعه وشراءه وإجارته وإعارته، أو قضاءه أو فتواه... الخ. فهو يطيع الله ويستحق ثوابه. ومن ساءت معاملته فهو خاسر في أمرين، قضاء الناس ضده، وغضب الله عليه. لأنه يعصى الله فيما عمل من عمل غير صالح. ومن ثمة تأثير الجانب الروحي أو الوازع الديني في الحياة الواقعة، وفي الدراسة العلمية، وفي طلب الأحكام الفقهية، في المجتمع الإسلامي. وهو امتياز لا تبلغه الأمم الأخرى أو مجتمعاتها.

وفي منهج الاعتبار بالواقع أو بالآثار الدالة على المطلوب "واقعية" أدنى إلى التصديق من مجازفات الفكر. وفي الواقع المادي ضمان أن لا يبعد الاستخلاص من الملموس والمحسوس بالحواس الخمس. وهذه الواقعية أو النزاهة الفكرية، تسبق واقعية "أوجست كومت"[١١٢] بقرون عشرة، وعقلانية "ديكارت" بقرون تسعة،كما تسبق "جون سيتورات مل"[١١٣] بقرون عشرة، في نظرية اطراد العلل وبهذه القرون يقاس سبق الحضارة الإسلامية.

والى جوار المشاهدة الواقعية والتحقيق النزيه والاستخلاص الصادق، يضيف الفقه الإسلامي ضمانا جديدا هو اعتبارا الاجتهاد سعيا لبلوغ الحق لا بلوغا له، فثمة عوامل أخرى قد تكون موجودة أو قد يدركها عقل آخر فتجعله أدنى إلى السداد، أو تجعله يصل إلى السداد. وهذا

---

(١١٢) أوجست وكمت Auguste Comte ١٧٩٨ – ١٨٥٧ صاحب الفلسفة الواقعية في القرن الماضي. انتفع بمؤلفات لبنتز وديكارت وفرنسيس بيكون والقديس توماس الأكويني وروجير بيكون والأخيران من أكبر من نشروا العلم الإسلامي وتأثروا به. وكثير من كتاباتهما تستعمل تعبيرات إسلامية.

(١١٣) جون ستيوراتمل ١٨٠٦ – ١٨٧٣.

الاحتمال الذي يلازم الاجتهاد يحتمل تداخل العناصر. فالنتائج نسبية حتى تقطع التجربة بأنها لا تتخلف أبدا.. وهي في الفقه تبقى نسبية حتى تبلغ الحكم الذي شرعه الشارع – فشرع الله هو الثابت، الذي يقصد المجتهدون قصده.

* * *

وربما كان الكلام المنقول عن "جابر بن حيان" أوضح كلام في الدلالة على المنهج التجريبي الذي تعلمه في مجلس الإمام أو من كتب الإمام.

يخاطب جابر الإمام في مقدمة كتابه الأحجار بقوله: "وحق سيدي – لولا أن هذه الكتب باسم سيدي – صلوات الله عليه – لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الأبد".

ويقول جابر في كتابه الخواص عن طريقته: "اتعب أولا تعبا واحدا. واعلم. ثم اعمل. فإنك لا تصل أولا. ثم تصل إلى ما تريد".

وفي كتابه السبعين يقول: "من كان دربا "مجربا" كان عالما حقا. ومن لم يكن دربا لم يكن عالما. وحسبك بالدربة في جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل".

ويحصل جابر طريقته في عبارته المأثورة: "عملته بيدي. وبعقلي. وبحثته حتى صح. وامتحنته فما كذب" وفي هذا المقام يقول أستاذ الفلسفة الإسلامية المعاصر في جامعة القاهرة د. زكي نجيب محمود: ".. فلو شئت تلخيصا للمنهج الديكارتي[١١٤] كله لم تجد خيرا من هذا النص الذي أسلفناه عن جابر".

ويرى الصيدلي المعاصر د. محمد يحيى الهاشمي أن "الواقعية" هي التي سوغت لجابر أن يقسم القياس أو الاستدلال والاستنباط إلى ثلاثة أقسام – المجانسة ومجرى العادة وبالآثار –

---

(١١٤)

ومن دلالة المجانسة دلالة الأنموذج كمن يريك بعض الشئ دلالة على كله. وهو استدلال غير قاطع، إذ الأنموذج لا يوجب وجود شئ من جنسه يساويه تماما في الطبيعة والجوهر. وكذلك دلالة مجرى العادة فإنه كما يقول جابر –: "ليس فيه علم يقين واجب اضطراري برهاني أصلا. بل علم إقناعي يبلغ أن يكون: أحرى وأولى وأجدر لا غير، لكن استعمال الناس له وتقبلهم فيه واستدلالهم به والعمل في أمورهم عليه أكثر كثيرا جدا.. وليس في هذا الباب علم يقين واجب. وإنما وقع منه تعلق واستشهاد الشاهد على الغائب. لما في النفس من الظن والحسبان فإن الأمور "ينبغي أن تجري على نظام ومشابهة وماثلة فإنك تجد أكثر الناس يجرون أمورهم على هذا الحسبان والظن".

يقول جابر: ".. وبالجملة فليس لأحد أن يدعي أنه ليس في الغائب إلا مثل ما شاهد.. إنما ينبغي له أن يتوقف حتى يشهد البرهان بوجوده من عدمه..". فهو ينقد القياس من الناحية المنطقية أو الرياضية ليترك المجال مفتوحا للحقائق القاطعة التي تثبت بالتجارب.

وحسبك دليلا على دقة طريقة التدليل بآثار الأشياء، أن تجدها إحدى المسلمات في المعامل والجامعات، في القارات جميعا. منذ بدأ الأخذ بطريقة التجربة والاستخلاص حتى اليوم. وستبقى أبدا.

وعندما توضع أقوال جابر[١١٥] في القرن الثاني للهجرة إلى جوار أقوال "الحسن بن الهيثم" (٣٥٤ – ٤٣٠) بعد أكثر من قرنين. وقد عمل في خدمة الدولة الفاطمية، وهي دولة من دول الشيعة، وله ٤٧ كتابا في الرياضيات و٥٨ كتابا في الهندسة، تتأكد لنا طريقة التجربة

---

(١١٥) يقول جابر: "وكذلك ينبغي إذا ذهب الدهري "القائلون: إنما يخلقنا ويهلكنا الدهر – لا الله" يمنع أن يكون العالم مكونا مصنوعا، لأنه لم يشاهد، ولا واحد من الناس، بدء تكوينه، أن يقال له: ما ينكر أن يكون وجود الناس بعد وجود العالم بوقت طويل.. وتذكر كون مدينة أو قصر ولا يذكر أحد من أهل بلده ابتداء بنائه؟ فسلم أن يثبت قدم ذلك بالعلة التي أثبت بها قدم العالم. وإذا قال: إنما علمت أن المدينة والقصر التي لم نشاهد، ولا من توفي، ابتداء بنائها، أنها مبنية من قبل، أني رأيت مثلها بني، ولم أر مثل العالم مبنيا – قبل له إن هذا بعينه ما نقول. وندفع كونه في طريق الاستدلال – فمن أين قلت إن كل عالم تشاهده، وليس له شبيه ولا مثيل، موجود، وأن كلما لم تشاهده وليس له شبيه ولا مثيل فليس بموجود! إذ قد بان تقصيرك وتقصير أمثالك عن مشاهدة جميع الموجودات فأمكن أن يكون أكثر الموجودات مما لم تشاهده".

والاستخلاص التي سلكها الإمام الصادق وأتقن العمل بها ووصفها جابر والحسن. وقد أحسن الحسن التعبير عنها بمنهج علمي واضح الفحوى محدد العبارات(١١٦).

(١١٦) راجع مقدمة كتاب الدكتور مصطفى نظيف. مدير جامعة عين شمس – بالقاهرة – عن الحسن ابن الحسن الهيثم البصري أكبر عالم في الرياضيات والطبيعة في العصور الوسطى. وفد الحسن من العراق إلى القاهرة ليعمل مهندسا في خدمة الدولة الفاطمية في عصر الحاكم بأمر الله. وكان من رأيه جواز إقامة آلات على النيل يحركها تيار مياهه. والدكتور نظيف يقول إنه ينبغي لنا أن نستبدل بأسماء روجير بيكون ومور ليكوس ودافنشي وكيلر وكبلر ودولايورتا، اسم الحسن بن الهيثم. فعلى يد الحسن أخذ علم الضوء وجهة جديدة بمنهجه الإسلامي وهو "استقراء الموجودات. وتصفح أؤوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات وما يخص البصر في حال الإبصار. وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس. ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب، مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج. ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى. ونتحرى في سائر ما نميزه وننقده طلب الحق لا الميل مع الآراء. فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي يثلج الصدور ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين. ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات". فهذا جمع للاستقراء والقياس.

وما هو إلا منهج علماء الرياضيات والطبيعة المسلمين تابعهم فيه ابن الهيثم ونقله علماء أوروبة ابتداء من الكندي (٢٥٢) عالم الطبيعة فيلسوف العرب. والرازي (٣٢٠) جالينوس العرب أو الطبيب الفيلسوف الذي يتخذ الإحساسات بالجزئيات أساسا لكل عمله ويدلل بالكائنات الحية على وجود الخالق. وابن سينا (٤٢٨) الرئيس. أو الفيلسوف الطبيب الذي يمثل فكرة المثل الأعلى في العصور الوسطى كما يقول سارتون. وللآخيرين صورتان معلقتان على جدران جامعة باريس، الآن، مع جراح العظام ابن زهر.. راجع الإمام الشافعي للمؤلف – طبعة دار المعارف ٢٥٥ وما بعدها.

يراجع كذلك "القرآن والمنهج العلمي المعاصر" للمؤلف – طبعة دار المعارف ص١٦٩ وما بعدها.

obeikandl.com

ويشهد بها من أهل أوروبة دراپير في كتابه "النزاع بين العلم والدين" فيقول: "كان الأسلوب الذي توخاه المسلمون سبب تفوقهم في العلم. فإنهم تحققوا أن الأسلوب النظري لا يؤدي إلى التقدم. وأن الأمل في معرفة الحقيقة معقود بمشاهدة الحوادث ذاتها. ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم هو "الأسلوب التجريبي". وهذا الأسلوب هو الذي أرشدهم إلى اكتشاف علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة. وإننا لندهش حينما نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم في هذا العصر".

* * *

والقارئ يلاحظ في هذا المقام أمورا. منها:

الأول: أن جابرا يقرر إذ يقسم بالإمام، أنه استرشد في طريقته هذه به. وأن علمه منه هو سبب توفيقه. ولو كان قد تلقى الطريقة عنه دون لقاء له لما نقص الفضل. فذلك شأن العلماء في كل زمان.

الثاني: أن ممارسة جابر لطريقته مع إقرار الإمام له، قد ضبطتها مدارسة أبي حنيفة للإمام. إذ أنبهت القياسيين على وجوب ضبط طريقة القياس بوضع حدود له واستبعاد ما ليس منه[١١٧].

وظاهر من قبول أبي حنيفة لنهي الإمام عن القياس وعدم مجادلته للإمام بكلمة، أن أبا حنيفة أدرك أن النهي عن القياس نهي عن القول في الدين بالرأي. وليس مقصودا به النهي عن الاجتهاد واستعمال العقل.

---

(١١٧) يقول أحمد بن حنبل: "أنا أذهب إلى كل حديث جاء ولا أقيس عليه" و"سألت الشافعي عن القياس فقال: إنما يصار إليه عند الضرورة"، وفي حالة الضرورة هذه أباح أحمد "أن يقاس الشئ إذا كان مثله في كل أءواله. فأما إذا أشبهه في حال وخالفه في حال فأردت أن تقيس عليه فهذا.. خطأ. فإذا كان مثله في كل أحواله فما أقبلت به وأدبرت به فليس في نفسي شئ منه".

obeikandi.com

وظاهر أن الإمام بلغ مراده من أبي حنيفة وممن تابعوه في القياس. فلم يقل أحد منهم في الدين برأيه. والتزم القائلون بالقياس كل الدقة. بعد إذ جاء الشافعي وفصل شروطه تفصيلا.

الثالث: أنه يظهر من محاورة الإمام لأبي حنيفة يوم استأذن عليه فحجبه فدخل مع أهل الكوفة التي سلف ذكرها أمران:

١- أن الأحكام التي ذكرها الإمام لأبي حنيفة. وارد فيها نصوص. مما يجعل لتحريم القول في الدين بالرأي أو مطلق القياس حجة مسلمة.

٢- أن الإمام ذكر أبا حنيفة بقياس إبليس. إذ أعلن إبليس أنه يخرج عن طاعة الله برأيه. فكان رأيه عصيانا صريحا، لأمر صريح، وخروجا على نص وارد على سبيل الجزم.

وليس عجيبا وإنما هو التواتر على استعمال العقل، أن يقرر أئمة أهل السنة جميعا أن باب الاجتهاد مفتوح إذا لم يكن ثمة نص. وأن يجمع علماؤهم أن أحدا لا يقول الكلمة الأخيرة فيه. وأن يكون هذا منهج الفقه الشيعي الذي دأب عليه علماؤه.

يقول ابن إدريس (٥٩٨) من فقهاء الشيعة المتقدمين: "إذا فقدت الثلاثة – الكتاب والسنة والإجماع – فالمعتمد عند المحققين التمسك بدليل العقل".

ومن فحولهم المحقق نجم الدين الحلي (٦٧٦) يقسم الدليل العقلي قسمين الأول يتعلق بالخطاب – فحواه ولحنه ودليله – والثاني ما ينفرد العقل بالدلالة عليه لحسنه أو قبحه.

والشهيد الأول محمد بن مكي (٧٨٦) يوسع في القسم الأول ويفصل في القسم الثاني فيزيد البراءة الأصلية. وما لا دليل عليه. والأخذ بالأقل عند التردد بين الأكثر والأقل. والاستصحاب.

وربما أجمل التفصيل قول بعض المتأخرين[١١٨] من الأصوليين عن الدليل العقلي: إنه كل حكم للعقل يوجب القطع بالحكم الشرعي. فالدليل العقلي يوجب القطع. وليس بعد القطع حجة.

بالعقل أدرك الإنسان وجود ربه. ودان بالرسالات. وأدرك المعاني والعلل. وقدر على تمييز القبيح والحسن بفطرة البشر.

فالقبح مفسدة والحسن مصلحة[١١٩]. وما يدركه العقل منهما هو حكم عقلي يستقل الإنسان بتقريره. وما يستقل العقل بتقريره من مصلحة أو مفسدة هو مصلحة أو مفسدة شرعية. وعلى كليهما تدور الأحكام. فالشرع هاد للبشر والبشر مفطورون على استعمال نعمة الشارع. ولا يمنع هذا التأييد الشرعي للعقل أو التأييد العقلي للشرع، أن توجد بعض مصالح يراها الشرع ولا يفطن لها العقل العادي فيتردد أمامها بظنه.

وإذا كان أصل استعمال العقل يسع كل وسائل النظر، فالفقيه ملزم بالاحتياط– وهو أول ما تستوجبه النزاهة العقلية – لوجود احتمال التزاحم والتعارض. فلا تجوز المجازفة بالتحليل والتحريم مع وجود هذا الاحتمال.. وإنما يلجأ الفقيه لاستخراج الحكم، عند عدم ظهور النص، إلى استعمال العقل، وبقواعد يمليها العقل والنقل، مثل وجوب دفع الضرر المحتمل ومثل عدم العقاب بلا بيان.

والعقل إذ يقرر قبح العقاب بلا بيان. يسوغ للمكلف أن يصنع ما يراه عند عدم البيان. وبتعبير آخر تصبح الإباحة هي الأصل. والحرية هي الأصل. حتى تتقيد بنص.

---

(١١٨) الشيخ محمد رضا المظفر.

(١١٩) الحسن والقبيح قضية يمسك بطرفيها الأشاعرة فيقولون: إن الشرع وحده هو الذي يعطي الفعل وصفه. والشيعة، ويتبعهم في ذلك المعتزلة، يقررون أنهما وصفان ذاتيان يستقل العقل بإدراكهما. فالصدق والمروءة أمران حسنان. والكذب وانعدام المروءة أمران قبيحان.

obeikandi.com

يقول الإمام الصادق: "كل شئ لك حلال حتى تعلم أنه حرام بعينه" ومن هنا اتسع مجال النشاط الإنساني. فلا حرام إلا ما حرم الله.

والنص نقطة الثبات، أو حجر الزاوية في الفقه. فلا اجتهاد مع وروده. والتزام فحواه أو التزام مقاصد الشارع التي ينطق النص بها، أو يدل على معناه مجموع النصوص، لا يدخل بالمصلحة أو بالقياس شيئا على الشرع ليس منه.

* * *

والإمام الصادق يفتح أبواب رحمة الله ويرفع الحرج ويبيح الرخص.

يقول: "الوضوء نصف الإيمان" ويقول: "إنه توبة من غير استغفار" ومع هذا سئل عن رجل يكون معه الماء في السفر ويخاف قلته؟ فقال: "يتيمم بالصعيد ويستبقي الماء".

ويقول: "من خاف عطشا فلا يهريق قطرة. وليتيمم بالصعيد. فالصعيد أحب إلي".

سئل عن رجل ليس معه ماء والماء عن يمين الطريق ويساره غلوتين أو نحو ذلك "الغلوة مسافة مرمى السهم"؟ فقال: "لا آمره أن يغرر بنفسه فيعرض له لص أو سبع".

وسئل عن رجل يمر بالركية "البئر" وليس معه دلو. قال: "ليس عليه أن يدخل الركية، لأن رب الماء هو رب الأرض. فليتيمم. إن الله جعل التراب طهورا كما جعل الماء طهورا".

ويقول: إن أبا ذر قال: يا رسول الله هلكت. جامعت أهلي على غير ماء. فقال ﷺ: "يا أبا ذر يكفيك الصعيد عشر سنين".

وسئل عن رجل به القروح والجراحات فيجنب؟ قال: لا بأس بأن يتيمم ولا يغتسل.

obeikandl.com

والفقهاء يقولون: إن نفي الحرج في الشريعة من باب الرخصة لأن تحمل الألم والمشقة غير منهي عنه. ونفى الضرر من باب العزيمة لأن الضرر منهي عنه. يقول تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة).

يقول الصادق: "لا صلاة إلا إلى القبلة" فقيل له: أين حد القبلة؟ قال: "ما بين المشرق والمغرب كله قبلة" ويشرح ذلك قوله: "يجزي التحري أبدا إذا لم يعلم وجه القبلة".

والفقهاء يصرحون بالإذن لمن يشك في الدليل بأن يستعمل قواعد الشرع من أصول الحل والطهارة والتخبير واستصحاب الحال – ومعناه استدامة ما كان ثابتا، ونفي ما كان منفيا – فمن شك في قيامه بالوضوء قبل أن يصلي فعليه أن يتوضأ، لأن الوضوء شرط واجب قبل الصلاة، والحال قبل الوضوء للصلاة حال تقتضي الوضوء. ومن توضأ ثم شك في نقض الوضوء فهو على وضوء. ومن شك في أنه توضأ بعد أن دخل في الصلاة قطعها وتوضأ، ليحرز شرط الصلاة، فإن شك بعد إتمام الصلاة فليس عليه أن يعيدها. فقد فرغ منها. لكن عليه أن يتوضأ لصلاة تالية لأنه لم يبدأها ولم ينته منها. أي لم يتجاوز الشئ الذي شك فيه إلى غيره.

سئل الإمام الصادق عن رجل شك في الأذان وقد دخل في الإقامة؟

قال: يمضي. قيل له: شك في الإقامة وقد كبر؟ قال: يمضي.. وفي التكبير وقد قرأ؟ قال: يمضي.. وفي القراءة وقد ركع؟ قال: يمضي.. وفي الركوع وقد سجد؟ قال: يمضي.. إلى أن قال: "إذا خرجت من شئ ثم دخلت في غيره فشكك ليس بشئ".

ويقول: "إذا شككت في شئ من الوضوء وقد دخلت في غيره فليس شكك بشئ. إنما الشك إذا كنت في شئ لم تجزه".

وسئل عن رجل يشك كثيرا في صلاته. فقال فيما قال: "إن الشيطان خبيث معتاد لما عود. فليمض أحدكم في الوهم"، أي لا يحفل به.. وبنى الفقهاء على ذلك قاعدة: لا شك لكثير الشك.

يقول الإمام الصادق: "من كان على يقين ثم شك فلا ينقض اليقين بالشك".

وهذا إعلان عن دليل استصحاب الحال، واعتماد الواقع والظاهر كمن استأجر أرضا وشاع أمره في الناس يعامل معاملة المستأجر. ولا يقبل منه ادعاء الملك إلا بدليل. وتتعاون مع هذا الأصل أصول أخرى مثل أصل البراءة والإباحة حتى يرد منع الشارع.

ويستثني الفقهاء الشيعة من المنع من القياس حالتين:

١- حالة العلة المنصوصة. وكثير ما هي في الكتاب والسنة.

٢- حالة مفهوم الأولوية، كقول أف للوالدين إذ نهى الله عنهما، فمن باب أولى ما هو أشد.

ويفرعون على العمومات والمبادئ الكلية الواردة في النصوص والإجماع. كمثل قواعد الوفاء بالعقود ودرء الحدود بالشبهات وجواز كل شرط إلا أن يحل حراما أو يحرم حلالا.

وعلى هذه الكليات مدار الفقه. والاجتهاد بها واجب. وبالاجتهاد بلغ الفقه الشيعي ما بلغه فقد أهل السنة. كل على شاكلته.

* * *

ندب الرسول عليا إلى اليمن. فسأله الإمام: أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ - أي أجتهد رأيي فيما بين يدي مما ليس بين يديك - قال عليه الصلاة والسلام: "بل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب".

فهو يأذن له أن يجتهد أو يأمره أن يجتهد.

obeikandl.com

ويقول ابن مسعود للقضاة والمفتين والمجتهدين: "من عرض له منكم قضاء فليقض بما في كتاب الله. فإن لم يكن في كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه ﷺ. فإن ما جاء أمر ليس في كتاب الله ولم يقض به نبيه فليقض بما قضى به الصالحون – فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولم يقض به الصالحون فليجتهد رأيه. فإن لم يحسن فليقم ولا يستحي".

والشيعة في اجتهادهم يعملون بأصل الاحتياط الواجب، مع العلم بالتكليف الملزم، واصل التخيير إذا تردد الفعل بين الوجوب والحرمة. ويرون الحسن والقبح أمرين "عقليين" ثابتين بالعقل. وما أمر الشارع ونهيه في صددهما إلا لأن العقل يأمر بهما. فلا حاجة إذن لسؤال الشرع ابتداء. بل يسأل العقل. فعدم العلم بالنهي كاف للحل. ولا تحتاج الإباحة لدليل، وإنما يحتاج ادعاء عكسها إلى دليله. فالاختراعات الحديثة مباحة استنادا إلى ما ثبت شرعا من أن كل شئ مطلق حتى يرد فيه نهي.

والجواز في التصرف مطلق لا يقيده إلا التثبت من حق الغير.

فالمعاملات، أية كانت، صحيحة ما لم تزاحم حقا عاما أو خاصا أو يوجد نص أو معنى يحرمها.

وفي كثير من الأحيان، يكون عمل الفقيه مجرد تحكيم النصوص بعضها على بعض. مثل قوله تعالى: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقول الرسول: "لا ضرر ولا ضرار" وقاعدة "الضرورات تبيح المحظورات" وقاعدة (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) وهذه أمثال للأدلة الحاكمة على أدلة سواها.

فالعمل بها ليس تخصيصا للنص بالمصلحة، وإنما هو حكومة نص على نص أي رفع اليد عن الكتاب والسنة بدليل منهما – أيضا – مجعول في ظرف خاص يزاحم الدليل الآخر أو يحكم عليه.

والشيعة إذ يبنون فهمهم على أن الله يأمر بالفعل لمصلحة، وينهى عن الفعل لمفسدة، لا يعتبرون مخالفا للأمر والنهي من يوجد في حالة اضطرار، وإنما يشترطون أن تكون المخالفة

على قدر الضرورة، وارتفاع المسوغ حالة انتهاء الاضطرار، أو عند تجاوز المقدار. يقول تعالى: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) و (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) و (يريد الله أن يخفف عنكم).

وبالانتفاع بهذه الرخص يظهر أن الاضطرار نسبي. بل يظهر أنه ليس إلا خيار، وفيه إرادة.

والإجبار هو ما يعدم الاختيار بما يزيل من القدرة – وهي شرط التكليف.

فالمضطر في الواقع "يختار" الفعل لعامل خارجي أو داخلي "نفسي". كمن لا يملك إلا ثوبا واحدا يلبسه ليستره "ويختار" أن يبيعه ليأكل، غذ يؤثر العري على الجوع إذا لم يقدر أن يواجه جوعه بطريق آخر.

* * *

ولا عجب أن تتآمر كثرة الأوربيين بالصمت عن مناهج العلم الحديث المنقول من منهج المسلمين، كدأبهم في تنكير صلة آباء العلوم الرياضية والهندسية بالمهد الذي نشأت فيه. فذلك استمرار للحرب الصليبية، وإخضاع للحقائق العلمية للتعصب الديني المتأصل في الحضارة الأوروبية. فهم لا يذكرون أن فيثاغورث وأرشميدس وإقليدس آباء الرياضيات ألقوا الدروس وتلقوها في مدرسة الاسكندرية بمصر – ولا يذكرون أنهم لم يعرفوا كتاب إقليدس المسمى "الأساسيات" أو "العناصر" إلا عن نسخة عربية. ولا يذكرون أن أوروبة المعاصرة أخذت عن العلم الإسلامي المنهج العلمي المعاصر، أي منهج التجربة والاستخلاص.

يقول الشاعر محمد إقبال[١٢٠]: إن دبرنج Dubring يقول: "إن آراء روجير بيكون أصدق وأوضح من آراء سلفه.. ومن أين استمد روجير بيكون دراسته العلمية؟ من الجامعات الإسلامية في الأندلس".

ويقول بريفو[١٢١] Robert Briffault: إنه لا ينسب إلى روجبير بيكون (١٢٩٤)[١٢٢] ولا إلى سميه الآخر فرنسيس بيكون (١٦٢٦) أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في أوروبا.

---

(١٢٠) في كتابه إعادة تكوين الفكر الديني في الإسلام.

The Reconstruction of religious thinkibg

(١٢١) في كتابه صنع الإنسانية Making of Humanity

(١٢٢) مات روجير بيكون سنة ١٢٩٤ واستمرت الجامعات العربية والعرب في الأندلس قرنين بعد ذلك، إلى جوار المعاهد التي أنشئت لترجمة علومهم في فرنسا والأندلس وإيطاليا وألمانيا.

وكان يجيد اللغة العربية والعبرية،ويمارس التجارب العلمية في الطبيعة والكيمياء، وقاومه معاصروه لكن البابا شد أزره. وكان جزاؤه السجن في باريس من أجل كتاباته. وهي تعتبر طلائع لكشوف علمية حديثة "كالعدسات والسيارات ذات المحرك البدائي والطائرات" وهو القائل: "الفلسفة مستمدة من العربية. فاللاتيني – على هذا – لا يستطيع فهم الكتب المقدسة والفلسفة إلا إذا عرف اللغة التي نقلت عنها". ومن قبل ذلك بقرون – وعلى التحديد في سنة ٩٢٠ طلب ملك الصقالبة إلى الخليفة أن يبعث إليه معلمين وفقهاء فصنع. وكان الجغرافيون العرب في أرمينية منذ القرن التاسع للميلاد.

كذلك تلقى البابا سلفستر (٩٩٩ – ١٠٠٣) علومه بجامع قرطبة، وكان اسمه الراهب جلبير، قبل أن يصير رئيسا لدير رافنا. وهو ناقل العلوم العربية والأرقام العربية إلى أوروبة. وقد أنشأ مدرسة في إيطاليا وأخرى في ريمس بألمانيا لنقل العلوم العربية. وثابت أن مدرسة الوعاظ في طليطلة أنشأت مدرسة لتدريس اللغة العربية سنة ١٢٥٠م ثم أمر مجلس فينا سنة ١٣١١م بتدريس العلوم العربية في باريس وسلامنكا وغيرها.

وفي سنة ١٢٠٧ أنشأت جنوه جامعة لنقل الكتب العربية، وفي سنة ١٢٠٩، ١٢١٥ قرر المجمع المقدس منع تدريس كتب ابن رشد وابن سينا لما فيها من حرية فكرية.

وفي سنة ١٢٩٦ قرر المجمع اللاهوتي تحريم تدرس الفلسفة العربية وحرمان "كل من يعتقد أن العقل الإنساني واحد في كل الناس".. وكان الإمبراطور فردريك الثاني قد أنشأ جامعة نابولي لنقل العلوم العربية فوق ما تنقله مدرسة سالرنو المجاورة. وأنشأ العرب المطرودون من أسبانيا مدرسة مونيليه في بروفانس بجنوب فرنسا.

والشريف الإدريسي هو معلم روجار ملك صقلية. صنع له كرة من فضة، ككرة الأرض، سنة ١١٥٣، قبل أن تعرف أوروبة أن الأرض كروية.

ولم يكن روجير بيكون في الحقيقة إلا واحدا من رسل العلم الإسلامي والمنهج الإسلامي إلى

ومن الثابت أن فيبرو ناتشي Fibronacci أول عالم اشتغل بعلم الجبر قد رحل إلى مصر وسورية في عصر الملك فردريك الثاني ملك صقلية وأن أدلارد الباثي Adilard of Bath درس على العرب علمي الفلك والهندسة. وما هؤلاء إلا طلائع للعصر الذي عاشوا فيه.

وفي العصر ذاته كانت مدرسة صقلية وكمثلها مدرسة سالرنو في جنوب إيطاليا وجامعة نابولي التي أنشأها الإمبراطور فردريك الثاني تذيع العلوم العربية واحتل العرب جزر البحر الأبيض ابتداء من كريت سنة ٢١٢ إلى صقلية سنة ٢١٦ أي في النصف الأول من القرن التاسع للميلاد كما استولوا على باري وبرنديزي في وسط إيطاليا وتوطدت سيطرتهم على مقاطعتي كامبينا وأبروزي وأقاموا فيهما إمارات عربية. وامتد سلطان عرب الأندلس إلى جنوب فرنسا في مقاطعة بروفانس. وحاصروا روما.

وكانت ملابس البابا موشاة بالأحرف العربية. وتأثر دانتي بالثقافة العربية واضح في الكوميديا الإلهية. وهو يذكر صلاح الدين الأيوبي والدوق جود فري "الملك جود فري ملك بيت المقدس في حرب الصليبيين" في كتابه.وكانت السفارات بين الملوك والأمراء الفرنجة والسلاطين تمد إلى أوروبة أسباب الحضارة. وكانت كتب ابن رشد والغزالي أيامئذ تقدم الغذاء العلمي للفكر الأوروبي. وكتابات القديس توماس الأكويني "القديس توما" ناطقة بالتأثر الظاهر أو بالنقل الكامل.

وأول مرصد فلكي أقيم في أوروبة أقامه العرب بأشبيلية وأول مدرسة طبية في أوروبة هي التي أقاموها في ساليرنو. ومنذ سنة ٩٧٠ كان في غرناطة بأسبانيا ١٢٠ مدرسة منها ١٧ مدرسة كبيرة و٢٧ مدرسة مجانية يتعلم فيها نبلاء أوروبة علوما عربية.

ولما سقطت طليطلة في سنة ١٠٨٥ في أيدي الأسبان أقاموا المدارس لترجمة العلوم العربية فيها ولم يتوقف النقل بل أتيحت له مصادر جديدة بسقوط قرطبة سنة ١٢٣٦ ثم بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢.

وكان بلاط الفونسو السادس بعد سقوط طليطلة مصطبغا بالثقافة العربية. بل هو أعلن نفسه إمبراطور العقيدتين.المسلمة والمسيحية. وكان الفونسو الخامس الملقب بالحكيم ملك قشتالة من سنة ١٢٥٢ إلى ١٢٨٤ أكبر دعاة الثقافة العربية.وقد جمع له اليهود كتب العرب.

وفي سنة ١٢٥٠ أنشأت جماعة الوعاظ في طليطلة – مدرسة لتدريس اللغة العربية والعبرية بقصد تنصير المسلمين كما ألفت الكتب للدفاع عن المسيحية ضد المسلمين. وكان الأسقف ستيفن في باريس يناقش كتب ابن رشد. وفي آخر أيام المسلمين بالأندلس أنشئت محاكم التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة اللذين خيف انتشارهما من كتب المسلمين.

وفي بحر ثمانية عشر عاما من (١٤٨١ – ١٤٩٩) أحرقت هذه المحاكم ١٠٢٢٠ رجلا أحياء. وشنقت ٦٨٦٠. وعاقبت بعقوبات أخرى سبعة وتسعين ألفا. وفي سنة ١٥٠٢ قرر مجمع لاترانا لعن من ينظر في فلسفة ابن رشد، لأنه يقول بحرية العقل. يراجع الفصل الثاني وعنوانه "قوة الحضارة العلمية" من الباب الأول في كتابنا "توحيد الأمة العربية. فقرات ١٤ – ١٨ مطابع البلاغ".

أوروبـة المسيحية. ولـم يكـف بيكـون عـن القـول بـأن معرفـة العـرب وعلمهـم همـا الطريـق الوحيـد للمعرفة.. ولقد انتشر منهج العرب التجريبي في عصر بيكون وتعلمه الناس في أوروبة يحدوهم إلى هذا رغبة ملحة".

ويضـيف: "إنـه لـيس هنـاك وجهـة نظـر مـن وجهـات العلـم الأوروبـي لـم يكـن للثقافـة الإسـلامية عليهـا تـأثير أساسـي. وإن أهـم أثـر للثقافـة الإسـلامية هـو تأثيرهـا فـي العلـم الطبيعـي والروح العلمي وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث".

ثم يضيف:

"إن ما يدين به علمنا للعرب ليس ما قدموه لنا من اكتشاف نظريات مبتكرة غير ساكنة. إن العلم مدين للثقافة الإسلامية بأكثر من هذا. فقد أبدع اليونان المذاهب وعمموا الأحكام. لكن طرق البحث وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصلة العميقة والبحث التجريبي كانت كلها غريبة عن المزاج اليوناني.. إن ما ندعوه بالعلم ظهر في أوروبة نتيجة لروح جديد في البحث. ولطرق جديدة في الاستقصاء. طريقة التجربة والملاحظة والقياس. ولتطور الرياضيات، صورة لم يعرفها اليونان. وهذه الروح وهذه المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي".

أو كما يقول المستشرق المعاصر برنارد لويس:"إن أوروبة القرون الوسطى تحمل دينا مزدوجا لمعاصريها العرب. وهم الواسطة التي انتقل بها إلى أوروبة جزء كبير من ذلك التراث الثمين. كما تعلمت أوروبة من العرب طريقة جديدة وضعت العقل فوق السلطة ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة. وكان لهذين الأساسين الفضل الكبير في القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة".

وروجير بيكون يعلن تأثره بالمنهج العربي ورفضه للمنهج الأرسطي الذي سيطر على الفكر الأوروبي من جراء الفساد في استنتاجاته في العلوم الطبيعية فيقول:

If I had my way, ishould burn all books of Aristotle, for the study of them can lead to a loss of time, prouduce error, increase jgnoranc.

وتعريبه: "لو أتيح لي الأمر لأحرقت كل كتب أرسطو، لأن دراستها يمكن أن تؤدي إلى ضياع الوقت والوقوع في الخطأ ونشر الجهالة".

وكما قال جوستاف لوبون بعد ست قرون من وفاة بيكون: "أدرك العرب بعد لأي أن التجربة والمشاهدة خير من أفضل الكتب، ولذلك سبقوا أوروبة إلى هذه الحقيقة. فالمسلمون أسبق إلى نظام التجربة في العلوم".

obeikandl.com

الفصل الثاني

في السياسة والاجتماع

"وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة. فليكن صفوك لهم. وميلك معهم".

"علي بن أبي طالب"

لم تكن خلافة أمير المؤمنين علي هادئة أو هانئة. ولو هدأت لحمل الناس على الجادة بعلمه وعدله، وشجاعة رأيه وزهده. والزهد آية على صدق الولاة. وسبيل معبدة لهم إلى أنفس الرعية. فالشجاعة تروعها. أما الزهادة فتقنعها.

وعلي ﷺ إمام الزاهدين والمتقشفين من الصحابة. أجمع عليه العلماء والفقهاء والبلغاء وأبطال الحروب والحكماء وكل محب لأهل بيت النبي ﷺ.

والصوفية يمدون إليه بالأسباب، فيضعونه في قمتهم. كما يصرح بذلك: الشبلي. والجنيد. وسري السقطي. وأبو يزيد البسطامي. ومعروف الكرخي. وهم يسندون إليه الخرقة التي يتخذونها شعارا لزهدهم.

وأحمد بن حنبل – والصوفية يعتبرونه من أئمتهم – يقول إنه "ما اجتمعت لأحد من الفضائل بالأسانيد الصحاح ما اجتمع لعلي"، يقابله الجاحظ زعيم المعتزلة. أي في الطرف الأقصى في الخصومة لأحمد. ومع ذلك يتلاقى الطرفان في "علي" حيث يقول الجاحظ: "لا يعلم رجل من أهل الأرض: متى ذكر السبق في الإسلام والتقدم فيه، ومتى ذكرت النخوة والذب عن

الإسلام،ومتى ذكر الفقه في الدين، ومتى ذكر الزهد في الأمور التي يتناحر الناس عليها، كان مذكورا في هذه الخلال كلها، إلا علي".

والمعتزلة يمدون إليه أسبابهم الفكرية عن طريق حفيده أبي هاشم بن محمد بن الحنفية.

وفي مكان بعيد جدا من المعتزلة يقف محيي الدين بن عربي، من فلاسفة المتصوفة، ليقول: "علي من أصحاب العلم وممن يعلمون من الله ما لا يعلمه غيره" ويقول السراج الطوسي:"لأمير المؤمنين علي ﷺ من بين جميع أصحاب رسول الله "خصوصية" بمعان جليلة وإشارات لطيفة وألفاظ مفردة وعبارات ومعان للتوحيد والمعرفة والإيمان والعلم، وغير ذلك، وخصال شريفة تعلق وتخلق بها أهل الحقائق من الصوفية".

ولقد طالما افتتن بشخصيته الناس ومنهم المستشرقون الذين يتحدثون عنه، على طريقتهم في الإيضاح عن آرائهم، مثل كارادي فو. حيث يتصوره "ذلك البطل المتوجع المتألم. والفارس الصوفي.والإمام ذو الروح العميق القرار. التي يكمن في مكامنها سر العذاب الإلهي".

وإذا ذكرت كلمة "الإمام" مطلقة، انصرفت إلى علي بن أبي طالب دون سائر الصحابة.

ولم يكن النهج العلمي الذي أوجزنا الإشارة إليه،قبل، إلا استعمالا لأوصل تهدي إلى معرفة حكم الشرع ودليله، لبلوغ "السعادة في الدنيا والآخرة". وكان طبيعيا، وقد تضافرت في رسم حدود هذه السعادة، وضوابطها، والعلاقات الهادية إليها نصوص القرآن والسنة. أن يجلي الإمام علي في هذا المجال. وأن يتخلف لنا من حياته وسنوات حكمه على قصرها، وانحسار سلطته فيها، مواقف معلمه، ونصوص شارحة، وأن يتتابع في نسقها أعمال الأئمة من بنيه ليتشكل منها "مذهب سياسي واجتماعي واقتصادي" متكامل:

فنرى الحسن يضرب مثلا في العطاء وحقن الدماء. ونرى الحسين يضرب مثلا للجهاد في حروب الأمة وللاستشهاد في سبيل الحق. ونرى الأئمة الثلاثة بعدهما يفصلون القواعد للمجتمع العظيم، والدولة المثلى، والأسرة الفاضلة، والإنسان الذي يتغيا الكمال.

وكان لزاما، أن تكون بين تعاليمهم تعاليم دستورية واقتصادية واجتماعية. فالإمام علي، والأئمة من عقبه، بناة دول، وحماة مجتمعات. ازدهرت فيها الأسرة وصلح بها الرجل والمرأة. واستغنى الناس فيها بكدهم وكدحهم.

في الدولة وقواعدها:

لم يكد أمير المؤمنين يتلقى البيعة حتى أطلق كلماته كالصواعق رجوما للمنحرفين. أو كالبوارق المتألقة بآمال المصلحين. في منهاجه السياسي والاجتماعي والاقتصادي الجامع.

المساواة أساس الدولة:

لقد خطب في اليوم التالي لمبايعته فقال: "أما بعد.. ألا لا يقولن رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة واتخذوا الوصائف الرقيقة وصار ذلك عليهم عارا وشنارا، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا".

فلما كان الغد غدا الناس لقبض حقوقهم. فأمر كاتبه عبيد الله بن أبي رافع أن يبدأ بالمهاجرين. وأعطى كل من حضر منهم ثلاثة دنانير. ثم ثنى بالأنصار ثم سائر الناس كلهم. سوى بينهم الأحمر فيهم والأسود. فقال له سهل بن حنيف: هذا غلامي أعتقته بالأمس. قال: نعطيه كما نعطيك ثلاثة دنانير.

وتخلف عن هذه القسمة طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم.

وقال علي:"ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإن الحق قديم لا يبطله شئ، ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرقه في البلدان لرددته إلى حاله. فإن في العدل سعة. ومن ضاق عنه الحق فالجور عنه أضيق".

ولما جاءته امرأتان فسوى بينهما، قالت إحداهما: إني امرأة من العرب. وهذه أعجمية! قال: "إني لا أرى لبني إسماعيل في هذا الغنى فضلا على بني إسحق".

وغضب البعض مما يصنع أمير المؤمنين. وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية يقول: "ما كنت صانعا فاصنع..".

ودعى البعض في السر إلى رفض علي لمساواته بينهم وبين الأعاجم. ولما بلغه ذلك صعد المنبر متقلدا سيفه وقال: ".. ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله وطاعة الرسول.. قال الله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

ثم صاح بأعلى صوته: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين"..

في هذه الأيام الأولى وضح منهاجه الدستوري: المساواة في الحقوق والعدل بين الناس. ومنهاجه الاقتصادي: المساواة في العطاء بين فئات الشعب. ومنهاجه الاجتماعي: ليس في الإسلام شريف ومشروف. ولا أحمر وأسود. ولا عربي وأعجمي، وإنما أكرم الناس أتقاهم.

وكان عدله مع الذين حاربوه أو كفروه أو قتلوه دروسا في الفقه:

روى الغزالي في المستصفى أن قضاته استشاروه في شهادة الخوارج بالبصرة فأمر بقبولها كما كانت تقبل قبل خروجهم عليه. لأنهم إنما حاربوا على تأويل. وفي رد شهادتهم تعصب وإثارة خلاف.

حتى قاتله عبد الرحمن بن ملجم نهى عن المثلة به.

وبالمساواة التي هي خصيصة الإسلام الأولى، بعد التوحيد، أهرع أبناء البلاد المفتوحة – من غير العرب – إلى اعتناق الإسلام. ثم اختار كثير منهم الانضمام تحت لواء الشيعة.

ولما سادت الدعوة لأهل البيت في خراسان أقبلت جيوشها تقيم دولة الدين على أنقاض بني أمية وبني مروان. وكانت تولية "الرضا" من "أهل البيت" والتسوية بين "الموالي والعرب" شعار الدولة التي أقامها أبو مسلم الخراساني والتي سرقها بنو العباس من بني علي، كما أوضحنا قبل(١٢٣).

---

(١٢٣) كان بنو أمية يجعلون للعرب درجة على الموالي – وسمى العرب الموالي بالعلوج. بل قال جرير:

قالوا نبيعكه بيعا فقلت لهم بيعوا الموالي واستغنوا عن العرب

والمبرد يقول: "وتزعم الرواة أن الذي أنفت منه جلة الموالي هذا البيت لأنه حطهم ووضعهم".

وتزوج أعجمي من عربية من بني سليم فشكاهما محتسب إلى والي المدينة إبراهيم بن هشام صهر الخليفة عبد الملك بن مروان "ففرق بينهما لعدم الكفاءة وعزر الزوج لأنه ارتكب جريمة! بأن ضربه مائتي جلدة ثم حلق حليته وشاربه.

فقالوا عن الوالي:

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد

وإبراهيم بن هشام خال الخليفة هشام بن عبد الملك.

وسأل هشام جليسه في فاتحة القرن الثاني للهجرة عن فقهاء الأمصار. قال: من فقيه المدينة؟ قال: نافع مولى ابن عمر. قال: فمن فقيه أهل مكة؟

قال: عطاء بن أبي رباح. قال: مولى أم عربي؟

قال: مولى. قال: فمن فقيه اليمن؟

قال: طاوس بن كيسان. قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى.

قال: فمن فقيه أهل اليمامة؟

قال: يحيى بن أبي كثير. قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى.

قال: فمن فقيه أهل الشام؟

قال: مكحول. قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى.

قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟

قال: ميمون بن مهران. قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى.

ولقد وهم الذين نسبوا أسباب التشيع في خراسان إلى ما زعموه من تشابه تتابع الخلافة النبوية والدينية في بيت الرسول، وتوارث الملك عند الفرس في الدولة الكسروية، وحكم كسرى "بالحق الإلهي".

فلقد ترك الفرس دين كسرى بتمامه إلى الإسلام وقواعده.

قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟

قال: الضحاك بن مزاحم. قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى.

قال: فمن فقيه أهل البصرة؟

قال: الحسن وابن سيرين. قال: مولیان أم عربيان؟ قال: مولیان.

قال: فمن فقيه أهل الكوفة؟

قال: إبراهيم النخعي. قال: مولى أم عربي؟

قال: عربي.

قال: كادت نفسي تزهق ولا تقول واحد عربي!

ومن هذا التعصب للعرق وتمييز العرب ثار من عدا العرب في خراسان "ما وراء العراق حتى وسط آسيا" وأجاء أهل خراسان بني العباس إلى الخلافة بشعارين يكمل كل منهما الآخر:

(١) إعادة حكم الدين وتولية أهل البيت.

(٢) مساواة الموالي والعرب.وانطبعت الدولة العباسية في أغلب أمرها بطابع غير عربي.

يقول الجاحظ عن المائة الأولى من عمرها: "دولتهم أعجمية خراسانية. ودولة بني أمية عربية أعرابية".

وكان مؤسسو الدولة العباسية يشيرون إلى خراسان على أنها "باب الدولة".

وفي خواتيم المائة الأولى حاول الرشيد أن يستعدي مقاليد الأمور من الفرس فكانت مصارع البرامكة. فلم يلبث الفرس إلا سنين حتى قتلت جيوشهم الأمين – العربي الأب والأم – وجاءوا بالمأمون إلى عرش الخلافة وأمه خراسانية.

وشهدت المائة الثانية من عمر الدولة دولا قادمة من خراسان تستقل بممالكها أو تحكم الدولة العباسية كلها: بني سامان (٢٦١ – ٣٨٩) يحكمون في الشرق من خراسان من عهد المستعين (٢٤٨) والدولة الصفارية في عهد المعتز (٢٥٢) ثم بني بويه (٣٢٤ – ٤٢٣) يحكمون فارس والري وأصفهان والجبل. ولم تنشأ دولة عربية إلا في الموصل وديار بكر وربيعة وهي دولة بني حمدان (٣١٧ – ٣٥٨).

obeikandl.com

إنما كانت تفرقة الولاة والحكام بين العجم وبين العرب سببا لتصبح المساواة صيحة التجمع منهم على أمير المؤمنين علي وبنيه. وكان أهل البيت مضطهدين، تهوى إليهم الأفئدة. وكانوا شجعانا يستشهدون. فاجتمع على إيجاب الانضمام إليهم الدين والعقل والمصلحة. وهي دوافع كافية للجهاد ضد بني أمية.

أما زعم الزاعمين أن أصهار الحسين إلى الفرس في أم زين العابدين كان سببا لتشيعهم، فينقضه أن ابني عمر وأبي بكر أصهرا إليهم في أختين لها، ومع ذلك لم يتعصب الفرس لأبويهما.

لا مراء كان طلب المساواة هو الباعث على التشيع لعلي، من قوم سلبت حقوقهم في المساواة. وهم في قمة المجتمع العلمي والديني يحملون مسئوليات الدين الجديد مع العرب(١٢٤).

والدول العظيمة، والحروب الدامية، وتغيير التاريخ، لا يحدثها الغضب من أجل النسب. وإنما تحدثها المبادئ الخالدة والبطولات الرائعة وابتغاء مستقبل أفضل. وتفسير التاريخ على أساس النسب تفسير أوروبي يدفع المستشرقين إليه سوابق "الزواج السياسي" بين ملوكهم و"حروب الوراثة" بين دولهم.

العدل – ونزاهة الحكم:

في حياة علي ومبادئه، وخطبه وأقضيته، عن هذين، ما لا نظير له في أي عصر، والمقام يضيق عن الاستقصاء. فحسبنا أن نقف قليلا عند فقرات من عهده لمالك بن الحارث

---

(١٢٤) ومن المستشرقين من يلقي القول على عواهنه: "فلهوزن" مثلا يخلط بين أشياع علي وأتباع ابن سبأ الذي يبرأ الشيعة منه. يقول إن بعض العقيدة الشيعية نبع من اليهودية. أكثر مما نبع من الفارسية. "ودوزي" يرى أن الأصل في التشيع فارسي، لأن الفرس يدينون بالملك والوراثة فيه والحق الإلهي. "وفان فلوتن" يرى أن التشيع كان مباءة للعقائد الآسيوية.

ومن المؤرخين من تابعوا المستشرقين.

"الأشتر النخعي" فهذا عهد مقطوع القرين في شكله وموضوعه، في التراث العالمي والإسلامي، وبخاصة في السياسة الإسلامية، والحكم الصالح، سواء في صياغته أو محتوياته.

وهذا العهد يضع اسم علي في ذروة المؤسسين للدول "واضعي الدساتير" حيث يتكلم عما يسمى في الدساتير العصرية بالمقومات الأساسية،وواجبات الولاة نحو الأمة، وطريقة قيامهم بحقوق الجماعة، بالتفصيل اللازم. والتنبيه على ملء الفراغ، فيما سكت عنه، بالرجوع إلى أصل الشريعة: القرآن والسنة.

ولقد تتابعت على هذا العهد شروح الأئمة من بعد، فرأينا لزين العابدين في رسالة الحقوق تفصيلات جديدة يقتضيها الزمان، وشهدنا الإمام جعفر الصادق يضيف التطبيق، والتفصيل الدقيق، لما تضمنته رسالة زين العابدين وعهد علي – فيجعل من تنفيذهما وشروحه لهما،عهدا جديدا للمسلمين وللشيعة، تبلغ به مجتمعاتهم أو دولهم مبالغها كلما التزموها أو قاربوا الالتزام بهما.

يبدأ "عهد علي" بتحديد مهمة الوالي "حين ولاه مصر، جباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح أهلها وعمارة بلادها" فهو قد جمع له ولاية الخراج وولاية الحكم وقال:

"واعلم أن الرعية طبقات. لا يصلح بعضها إلا ببعض. ولا غنى ببعضها عن بعض: فمنها جنود الله. ومنها كتاب العمة. ومنها قضاة العدل[١٢٥]. ومنها عمال الإنصاف والرفق. ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس. ومنها التجار وأهل الصناعات. ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة. وكلا قد سمى الله سهمه".

فالجنود بإذن الله حصون الرعية. وزين الولاة. وعز الدين. وسبيل الأمن. وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله تعالى لهم من الخراج.. ثم لا قوام لهذين

(١٢٥) يراجع شرح القسم القضائي من هذا العهد في كتابنا "القرآن والمنهج العلمي المعاصر" طبعة دار المعارف الباب السادس.

الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب. لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها.

ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات.. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم. وفي الله لكل سعة. وعلى الوالي حق بقدر ما يصلحه..".

أما ولاية الإدارة عامة، والعمال والكتاب خاصة. فيقول عنها: "فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ورسوله ولإمامك.. وأطهرهم جيبا وأفضلهم حلما.. ثم ألصق بذوي المروءات.. ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما.. ولا تحقرن لطفا تتعاهدهم به وإن قل.. وليكن آثر جندك عندك من واساهم في معونته.. وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد بظهور مودعة الرعية..".

وأما عن العدالة، وقوامها القضاء، فيبدأ المشترع العظيم – في التعبير الأوروبي – الكلام فيها عن القانون الواجب التطبيق فيقول:

"واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور. فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) – فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه والرد إلى الرسول الأخذ: الجامعة غير المفرقة".

ويقرن القانون الإلهي بالقاضي كلما يتطلبه الإسلام فيعقب على ما سبق بقوله عن صميم القضاء:"ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور.ولا تمحكه الخصوم. ولا يتمادى في الزلة. ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه: أوقفهم في الشبهات. وآخذهم بالحجج. واقلهم تبرما بمراجعة الخصم. وأصبرهم على تكشيف الأمور. وأصرمهم عند اتضاح الحكم... ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء. وأولئك قليل.

ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيح علته وتقل حاجته إلى الناس. وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك. ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك".

ولئن كانت رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري قد جمعت جمل الأحكام في كلمات مختصرة،لا يجد محق عنها معدلا، إن عهد علي للأشتر كان في زمان مختلف،فجاء جامعا، بل مضيفا – في الموضوع الذي وردت فيه رسالة عمر – أمورا شتى يحتاجها زمان علي وكل زمان بعده.

وورود القانون، والدعوى، واختيار القاضي، وسلوكه، وطريقة القضاء، واستقلال القضاء، في فقرتين بين فقرات ذلك العهد، مظهر من مظاهر شموله واتساع نطاقه، وأسباب خلوده.

* * *

أما الإدارة العامة – عمال الوالي – ففيهم يقول أمير المؤمنين:

"انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختيارا ولا تولهم محاباة وأثرة.. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام. فإنهم أكرم أخلاقا وأصح أغراضا.. ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم. وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم. وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك... ثم تفقد أعمالهم...".

وأما الكتاب ففيهم قوله: "ثم انظر في حال كتابك. فول على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائدك وأسرارك، بأحمعهم لوجوه صالح الأخلاق، ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأ.. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستقامتك وحسن الظن منك.. ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم في العمة أثرا...".

ثم يقول عن الضعفة:

"وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه.. واجعل لذوي الحاجات منك مجلسا عاما... فلا تكونن منفرا ولا مضيعا. فإن في الناس من به العلة وله الحاجة. وقدس ألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين وجهني إلى اليمن كيف أصلي بهم فقال: "صل بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما".

الشورى والعناية بالعامة:

فـي بدايـة العهـد إلـى الأشـتر أمـران: الأول خـاص بالأشـتر. والثـاني خـاص بالعامـة والخاصة.

والأمران عصريان في كل عصر. ومطلوبان في كل مكان. ومن كل الحكام:

أما الأول: ففيه قوله له: "إن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك. ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنما يستدل على الصالحين بما يجري على ألسنة عباده.. فاملك هواك. وشح بنفسك عما لا يحل لك.. وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم صنفان:

إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق. يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل. ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ. فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله..." (١٢٦).

وقوله: "وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك.. فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال. أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك وممن لك فيه هوى. وليس شئ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم....".

ويقول عن الشورى: "ولا تدخلن في مشورتك من يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر. ولا جبانا يضعفك عن الأمور ولا حريصا يزين لك الشر، بالجور، فإن البخل والجبن غرائز شتى

(١٢٦) ولما عهد لمحمد بن أبي بكر كان مما جاء في عهده له قوله: "اعلم يا محمد بن أبي بكر أني قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي، أهل مصر، وأنتم يا أهل مصر فليصدق قولكم فعلكم وسركم علانيتكم. ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم".

يجمعها سوء الظن بالله... والصق بأهل الورع والصدق... ثم رضهم على أن لا يطروك... ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة..".

وأما الثاني: ففيه قوله: "وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق. وأعمها في العدل. وأجمعها لرضى الرعية. فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة. وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤنة في الرخاء، وأقل معونة في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف،وأقل شكرا عند الإعطاء، وأبطأ عذرا عند المنع، وأخف صبرا عند ملمات الدهر، من أهل الخاصة.

obeikandl.com

وإنما عماد الدين وجماع المسلمين، والعدة للأعداء، العامة من الأمة. فليكن صغوك لهم وميلك معهم".

* * *

بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين! إن رسول الله يقول: "اطلعت في الجنة فوجدت أكثر أهلها الفقراء" وأنت في طليعة أهل الجنة. تحب أكثر أهلها عددا في الحياة الدنيا. ومن أجل ذلك تكرم العامة، وهم كثرة الأمة. وتؤثر منها الفقراء.

ولقد كنت دائما قدوة. وأردت الخاصة على أن تكون قدوة. وحذرتها من مطامعها ومزالقها. ولو حذرت،للزمت الجادة، وصلح أمر هذه الأمة.

إن مني ضع دستورا في العصر الحديث خليق بأن يرتوي من عهدك، ويروي الأمة من ينابيعك، في تطبيق الشريعة، وسيادة القانون، واستقلال القضاء، وأمانة الولاة،ونزاهة الإدارة، واحترام العامة، وإلزام الخاصة أن تكون قدوة في الأمة.

* * *

يقول ابن المقفع في شأن الخاصة بعد مائة عام، في كتابه لأبي جعفر: "وقد علمنا علما لا يخالطه الشك أن عامة قط لم تصلح من قبل نفسها. ولم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها.. وحاجة الخواص إلى الإمام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك".

ويتصدى الإمام زين العابدين في "رسالة الحقوق" بالشرح الشامل، والتفصيل الطويل، لسلوك الجماعات والأفراد وما يجب لها شرحا وتفصيلا تقتضيهما حالة الناس وظروف الزمان في النصف الثاني من القرن، عصر كربلاء والحرة وضرب الكعبة والدولة الهرقلية وتغير الناس.

واستقصاء السجاد فيها للأحكام مظهر لتحمله مسئولية تعليم المسلمين أمور دينهم وشئون دنياهم: فهي تبدأ بحقوق الله عز وجل. وأكبرها ما أوجبه الله تعالى من حقه. فجعل للجوارح حقوقا ولأفعالها حقوقا "ثم تخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك وأوجبها عليك حق أئمتك ثم حقوق رعيتك ثم حقوق رحمك. فهذه حقوق يتشعب منها حقوق. فحقوق أئمتك ثلاثة.. وحقوق رعيتك ثلاثة.. وحقوق رحمك كثيرة متصلة.. فأوجبها عليك حق أمك ثم حق أبيك.. ثم حق مولاك المنعم عليك ثم..." (١٢٧).

وتطرقت رسالة الحقوق للعلاقات الحكومية والقضائية والاجتماعية التي تنظم الجماعة الإسلامية. فنظمت آدابها والتزاماتها الخلقية والقانونية بالتفصيل.

وربما أجزأ في تقريب منهاجها إلى الألباب مثل ننقله منها عن معاملة السلاطين حيث يقول: "وأما حق سائسك بالسلطان فأنت تعلم أنك جعلت له فتنة. وأنه مبتلى فيك بما جعله الله له عليك من السلطان. فعليك أن تخلص له في النصيحة. ولا تماحكه وقد بسطت يده عليك. فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه... وتلطف لعطائه ما يكفه عنك دون أن يضر بدينه. وتستعين عليه في ذلك بالله فلا تعانده.. فإنك إن فعلت ذلك عققته وعققت نفسك وعرضتها للمكروه".

---

(١٢٧) فأما حق الله الأكبر عليك فأن تعبده ولا تشرك به شيئا. فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة.. وأما حق نفسك عليك.. وأما حق اللسان.. وأما حق السمع.. وأما حق بصرك.. وأما حق رجليك.. وأما حق يدك.. وأما حق بطنك.. وأما حق فرجك..

ثم حقوق الأفعال: وحق الصلاة.. وأما حق الصوم.. وأما حق الصدقة.. وأما حق الهدي – ثم حق الأئمة.. فأما حق سائسك بالسلطان.. وأما حق سائسك بالعلم.. وأما حق سائسك بالمال..

ثم حقوق الرعية.. فأما حقوق رعيتك بالسلطان.. والعلم.. بملك النكاح.. بملك اليمين.

وأما حق الرحم.. وأما حق أمتك.. وأما حق ولدك.. وأما حق أخيك.. وأما حق المنعم عليك.. وأما حق مولاك الجارية نعمته عليك.. وأما حق ذي المعروف عليك.. وأما حق المؤذن.. وأما حق إمامك في صلواتك.. وأما حق الجليس.. وأما حق الجار.. وأما حق الصاحب. وأما حق الشريك.. وأما حق المال.. وأما حق الغريم المطالب لك.. وأما حق الخليط.. وأما حق الخصم المدعى عليك.. وأما حق الخصم المدعى عليه.. وأما حق المستشير وأما حق المشير عليك.. وأما حق المستنصح.. وأما حق الناصح.. وأما حق الكبير.. وأما حق الصغير.. وأما حق السائل.. وأما حق المسئول.. وأما حق من سرك الله به وعلى يديه.. وأما حق من ساءك القضاء عليه.. وأما حق أهل ملتك عامة.. وأما حق.. وأما حق..

الحكام:

تابع الإمام الصادق عمل آبائه في التنبيه على قواعد الحكم الصالح ومنها حقوق العامة – وهي جسم الجماعة – بنصوص دستورية يوجزها. لتحفظ عنه وتنقل منه.. وإليك أمثالا:

يقول: "أفضل الملوك من أعطى ثلاث خصال: الرحمة، والجود، والبذل".

ويقول: "ليس للملوك أن يفرطوا في ثلاثة: حفظ الثغور،وتفقد المظالم، واختيار الصالحين لأعمالهم".

وما هي إلا أركان الدولة الثلاثة: الجيش، والقضاء، والإدارة.

أو مبادئ الحكم الثلاثة: المنعة في الخارج بالجيش. والعزة في الداخل بالعدل. والحكم الصالح بالإدارة الحسنة. والرسول يقول: "من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم"، وهو مقال موجه للعامة والخاصة في أمة خصيصتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأول المسئولين عنهما الولاة والعلماء والقادرون.

والصادق يقول لكل هؤلاء: "خير الناس أكثرهم خدمة للناس".

يقول للحكام: "كفارة عمل السلطان قضاء حاجات الإخوان"، ويقول: "المستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل" "العثرات" وهي مقولة تنطق بها سجلات الطغيان. حيثما كان، وفي جميع الحقب. فالزلة الواحدة تزعزع قوام الطاغية أو المتعصب أو المتحكم. فهو كالواقف على قدم واحدة.

وتعاليم الصادق في العدل والرفق بالرعية مقولات دستورية في الأمة.

obeikandl.com

يقول: "ما أوسع العدل وإن قل" ويقول: "أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم".

ويقول لوالي المنصور على الأهواز إذ استنصحه:

"فاعلم.. أن خلاصك ونجاتك في حقن الدماء وكف الأذى عن أولياء الله والرفق بالرعية. والثاني حسن المعاشرة مع لين في غير ضعف. وشدة في غير عنف.. وإياك والسعاة وأهل النمائم.. ولا تستصغرن من حلو وفضل طعام في بطون خالية.. إياك يا عبد الله أن تخيف مؤمنا".

تلك دروس جده ﷺ. وهو القائل: "سبعة يظلهم الله يوم القيامة. إمام عادل.." فبدأ بالعدل.

بل يقول عليه الصلاة والسلام: "عدل السلطان يوما يعدل عبادة سبعين سنة..".

والدنيا قد تدوم، والدولة قد تقوم، مع العدل والكفر. لكنها لا تبقى مع الظلم، وإن كان الظلم، واقعا على غير مسلم. والله تعالى يقول في محكم كتابه: (كونوا قوامين لله شهداء بالقسط. ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى) [١٢٨].

يقول الإمام الصادق: "من نكد العيش السلطان الجائر والجار السوء والمرأة البذيئة". فالسلطان الجائر أذى دائم، ومنكر مستمر، تضيق الدنيا به، وإن رحبت. كما يضيق المكان – على رحبه – بالجار السوء، وتضيق الحياة – وإن طالت أو اتسعت – مع المرأة الطويلة اللسان.

---

(١٢٨) لما فتح هولاكو بغداد استفتى العلماء: أيهما أفضل. السلطان الكافر العادل أو السلطان المسلم الجائر؟ فجمعوا لذلك بالمدرسة المستنصرية. وكان على بن طاوس حاضرا. وهو المقدم المحترم. فتناول الفتيا ووضع خطه عليها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر. ووضع العلماء خطوطهم على ذلك.

obeikandi.com

والإمام يبدأ بالسلطان الجائر لأن أذاه يفسد الدنيا وإن صلحت، والأسرة وإن هنؤت. وإذا عم العدل احتمل الناس همومهم حيث هم.

ومن فساد السلطان أن يتولى سدته المتكبرون. والمتعالون في دخيلتهم منحطون. يقول الصادق: "ما من أحد يتيه غلا من ذلة وجدها في نفسه".

ومن ذلك ينحى عن الرياسات من يجرون أزرهم خيلاء، فهؤلاء لا ينتفعون بتجربة من أنفسهم، وإلا لما تكبروا على الناس. أو من غيرهم، وإلا لما غرهم الغرور. يقول: "لا يطمع القليل التجربة المعجب برأيه في الرياسة" ويقول: "من طلب الرياسة هلك".

فإذا ولي الحاكم فليخش الله في الناس. وليعلم أن فيهم ضعفا، وأنه مطالب بالعفو والصفح الجميل. يقول الإمام: "أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. وأنقص الناس عقلا من ظلم من دونه. ولم يصفح عمن اعتذر إليه".

والناس مطالبون بأن يمحضوا النصح بإخلاص. وليس الإخلاص مجرد النية الحسنة أو البدار بالكلام. وإنما هو الفكر الجاد، وتقليب الأمور على وجوهها. والاستماع إلى المخالفين. فالإمام يقول: "لا تكن أول مشير. وإياك والرأي الفطير".

وكثيرا ما تأذى الناصح بنصحه، وركبت المنصوح شياطين غلوائه، وقد يستفيد الظنة المتنصح.

وينبه الإمام الأمة على ألا تشتري الراحة بالرياء إذ "المؤمن يداري ولا يماري" كما يقول. وينبه الناس – ومنهم الحكام – على أن يسارعوا إلى الخيرات بإصلاح عيوبهم، وإعلانها دون تأثم أو تحرج.

والناس يمدون أيديهم إلى من يصارحهم بمصاعبه، فيشركونه في متاعبه. يقول: "أنفع الأشياء للمرء سبقه الناس إلى عيب نفسه وأشدها مئونة إخفاء الفاقة...".

وكما يقول: "من لم يتفقد النقص في نفسه دام نقصه. ومن دام نقصه فالموت خير له..".

ولعل أنفع الناس للمرء، من يهدي إليه عيوبه: بأن ينبهه عليها.

المجتمع الجعفري

الإمام مبلغ عن النبي ﷺ علمه. وهذا العلم أجناس وأنواع، نشير في هذا المقام إلى بعض منها في السياسة والاجتماع، وهو حسب أي مجتمع ليقيم دولة راسخة الأركان، وأمة تعمل كخلية النحل، لا مجرد جمعية للإصلاح أو جماعة متطلعة للتقدم، كالجمعيات والجماعات التي تزخر بها المجتمعات في العصور الحديثة، بقصد إصلاح جزئي أو الدعوة لمبادئ معينة.

وكثير من المبادئ التي تحدثنا عنها قبل، والتي سنتحدث عنها بعد، شذرات من دروس. متداولة عن الإمام، لو حاولنا جمعها كنا كمن يجمع مصابيح السماء. وقد يكفي في هذا المقام ذكر بعض توجيهات الإمام "لشيعتنا" كما يقول. أو "للجعفري" الجدير بالانتساب للإمام. كما يسمي تابعيه.

وإذ كانت هذه التوجيهات إشارات إلى مؤهلات الانتساب إليه فهي تقطع بأنه كان يعد "دعاة" يدعون لمجتمع يدين بمبادئه.

وهذه المبادئ مضافة إلى الفقه المدني والجزائي ونظرية الإمامة، كافية لإقامة مذهب متكامل تقوم على قواعده "دولة" تكفل الجزاء والثواب، فالقاعدة القانونية، مع العقيدة الدينية والنظريات الخلقية، كالماء الذي يسقي البذور الصالحة التي تنتظر الزمن لتشق الأرض وتظهر، في حماية الدولة.

ولقد كلل الله بالنجاح سعيه. وظهرت دول ومجتمعات ازدهرت في العالم، مع اصطناع التغيرات التي تستدعيها حاجات السلطان والزمان والمكان، أو الدعاية للدولة، كما كان الشأن في الدول والمجتمعات الإسماعيلية كالفاطميين المنتسبين إلى إسماعيل بن الإمام جعفر.

وأحدثت هذه المبادئ آثارا منجحة في المجتمعات الشيعية، في أمم إسلامية أو غير إسلامية، أنمت التمسك الديني بفضائل الإسلام. وأمكنت من الدفاع عنه بقوة وإيمان. وأبدعت عبقريتها الاقتصادية التي طالما حضت عليها تعاليم الإمام.

فالتعاليم الصادرة عن الإمام الصادق ليست مجرد أصول فقهية أو فروع علمية كما هو دأب الأئمة من أهل السنة. بل هي تتعدى ذلك المجال إلى كل مجال للناس فيه نشاط سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي..

ومن أجل ذلك العموم في رسالة الإمام ومقامه في الإسلام، كان شعور أبي حنيفة ومالك وسفيان الثوري وعمرو بن عبيد ونظرائهم أو المقاربين لهم أنهم في مجلسه تلامذة. واعتبار الأمة أنهم هنالك كذلك وإن كانوا أئمة.

ومن نفاذ البصيرة. وعظمة الطريقة، وجلال السمت، واتساع العلم، كان اعتراف خصوم المسلمين أنفسهم بأنه – بين الحجيج جميعا – الفرد العلم.

* * *

أما المبادئ الفقهية ومبادئ العقيدة والسياسية فقد تكلمنا عنها وتبقى كلمات، كالإشارات، عن المبادئ الخلقية والاجتماعية التي انتخبنا بعضها، لتدل على اتجاهه بها نحو تكوين مجتمع قوي وإعداد الدعاة له..

أوصى الإمام المفضل بن عمر بخصال يبلغهن من وراءه من "شيعة أهل البيت".

"أن تؤدي الأمانة إلى من ائتمنك. وأن ترضى لأخيك ما ترضاه لنفسك. واعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب. وأن للأمور بغتات فكن منها على حذر. وإياك ومرتقى جبل سهل إذا كان المنحدر وعرا".

وأوصاهم:

"صلوا عشائركم. واشهدوا جنائزهم. وعودوا مرضاكم. وأدوا حقوقهم. فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل "هذا جعفري" ويسرني ذلك.

وإذا كان غير ذلك دخل علي بلاؤه وعاره. وقيل هذا أدب "جعفر"! فوالله إن الرجل كان يكون في القبيلة من "شيعة علي" فيكون زينها. أداهم للأمانة. وأقضاهم للحقوق. وأصدقهم. يحمل إليه وصاياهم وودائعهم. تسأل العشيرة عنه ويقال: "من مثل فلان؟".

وأوصاهم:

"أوصيكم بتقوى الله واجتناب معاصيه. وأداء الأمانة لمن ائتمنكم. وحسن الصحابة لمن صحبتموه. وأن تكونوا لنا دعاة صامتين".

فهو بهذا يربط إحسان العمل بالانتساب لأهل البيت ويضع القواعد المثلى للتجمع.

دخل عليه المفضل بن قيس ذات يوم يسأله الدعاء. وكما قال: "فشكوت إليه بعض حالي وسألته الدعاء فقال: يا جارية هاتي الكيس..

فقال: "هذا كيس فيه أربعمائة دينار فاستعن بها". قلت: ما أردت هذا الكيس. ولكن أردت الدعاء لي. قال: "ولا أدع الدعاء لك. ولكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم".

هكذا تتابع منه العطاء غير المطلوب، والدعاء المطلوب. والنصح الواجب. فهو معلم في المقام الأول. أعطى فأغنى. ثم نصح، ليقبل النصح منه.

والأعمال أعلى صوتا من الأقوال.

وهو يزيد العلاقة بين أصحابه وثاقة:

قال يوما لبعض أصحابه: ما بال أخيك يشكوك؟ قال: يشكوني إذ استقصيت عليه حقي. فقال مغضبا: "كأنك إذا استقصيت حقك لم تسئ؟

أرأيت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب؟ أخافوا أن يجور عليهم؟

ولكن خافوا الاستقصاء. سماه الله سوء الحساب. فمن استقصى فقد أساء".

أرأيت – إلى مدى ما يستنبط الإمام من النص؟ وإلى مقدار ما يدخل في أنفس أمته من الإحساس الرقيق بمتاعب بعضهم. كالجسم تتداعي أعضاؤه بإدراك مرهف وتكافل كامل؟ ذلك أدب جده صلى الله عليه وعلى آله.

والإمام يعلمهم أن تكون لهم اليد العليا بالابتداء بالعطاء.

وفي السؤال رهق. والصلة تفقد رونقها، وربما قيمتها، إن لم تكن فيها مبادرة:

دخل عليه رجل من خراسان قال: لقد قل ذات يبدي ولا أقدر على التوجه إلى أهلي إلا أن تعينوني.. فنظر الإمام للجالسين وقال. أما تسمعون ما يقول أخوكم؟.. إنما المعروف ابتداء فأما ما أعطيت بعد ما سأل فإنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه.. وقد قال رسول الله ﷺ: "والذي فلق الحبة وبرأ النسمة وبعثني بالحق نبيا لما يتجشم أحدكم من مسألته إياك أعظم مما ناله من معروفك.." فجمعوا له خمسمائة درهم. وبهذا اشترك الجميع في أداء الواجب.

وهو القائل: "أغنى الغنى ألا تكون للحرص أسيرا".

والتنبيه على الإرهاق في الاستقصاء، وعلى انعدام فضل المسئول على السائل، خصيصتان إسلاميتان ترفعان قدر الجماعة – بما فيهما من مؤالفة وتكافل.

والتعبيرات العالية عنهما تعبيرات إمام:

قال مصادف: "كنت عند أبي عبد الله فدخل رجل فسأله الإمام: كيف خلفت إخوانك؟ فأحسن الثناء عليهم. فسأله: كيف عبادة أغنيائهم على فقرائهم؟ قال الرجل: قليلة. قال الإمام:كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال قليلة. قال الإمام؟ فكيف يزعم هؤلاء أنهم "شيعتنا"؟".

الجهاد:

يقول أبو الدرداء: "من رأى أن الغدوة إلى العلم ليست بجهاد فقد نقص في عقله ودينه" والصادق لا يكتفي بالتعليم بل يحض على الجهاد بالنفس والمال ويقول للمسلمين: "الجهاد واجب مع إمام عادل. ومن قتل دون ماله فهو شهيد".

ويرى الانحياز إلى الظالمين تمكينا لهم. والجهاد مع العادلين تثبيتا للإسلام. سأل يوما عبد الملك بن عمرو: "لم لا تخرج إلى هذه الديار التي يخرج إليها أهل بلادك؟ – أي تجاهد مع الولاة – قال عبد الملك: أنتظر أمركم والاقتداء بكم. قال الإمام: أي والله لو كان خيرا ما سبقونا إليه. قال عبد الملك: إن الزيدية يقولون ليس بيننا وبين جعفر خلاف إلا أنه لا يرى الجهاد. قال الإمام: أنا لا أرى الجهاد؟...؟ بلى والله. إني أراه. لكني أكره أن أدعه حلمي إلى جهلهم".

ولقد كان عظيما جهاد جده الحسين في جيوش معاوية، بل جهاد الحسين ضد معاوية نفسه، إذ يخاطبه بقوله: "ثم سلطته "زيادا" على العراقيين يقطع أيدي المسلمين وأرجلهم ويصلبهم على جذوع النخل.. فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين علي. فقتلهم ومثل بهم بأمرك...".

أما كربلاء فملحمة في الإسلام.

فإذا كان الجهاد للدفاع عن الإسلام إذا ما تهدده العدو، أو حين يغزو أرض المسلمين عدو، فذلك فرض عين على كل فرد. ولو كانت تحت إمرة أمير جائر. سئل الإمام الرضا عن الرجل يرابط تجاه العدو.. كيف يصنع؟

قال: يقاتل عن بيضة الإسلام لا عن هؤلاء. يقصد الحكام الظلمة.

والمرابطة في الثغور إن كانت للاستطلاع فلها مدة. وهي مستحبة. وإذا كانت لملاقاة العدو فهي واجبة. والرجل المسلم كفء لرجلين عند اللقاء. يقول الإمام الصادق: "من فر من رجلين فقد فر ومن فر من ثلاثة فلم يفر".

والجهاد لغير الدفاع، أي لمجرد الغزو، فرض كفائي، قال الصادق: "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني راغب في الجهاد نشيط. قال له ﷺ: "فجاهد في سبيل الله" قال الرجل: إن لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي.

قال النبي: "أقم مع والديك. والذي نفسي بيده لأنسك بهما يوما وليلة خير من جهاد سنة".

والإمام بهذا يعلم الناس إيثار الوالدين بالرعاية. فهما النواة التي تزدوج لتصنع الأسرة. وهي بدورها نواة الأمة. والتمكين لهذه تكوين لتلك. أما إذا احتيج للرجل لكفاءة خاصة فيه فالجهاد فرض عين عليه.

والصادق يعلم المسلمين قوانين الإسلام في الحروب فيقول: "إذا أخذت أسيرا فعجز عن المشي ولم يكن معك محمل فأرسله ولا تقتله" ويعلن أن "إطعام الأسير حق على من أسره. وإن كان يراد من الغد قتله. فإنه ينبغي أن يطعم ويسقى ويرفق به، كافرا كان أو غيره".

ويعلم المسلمين "أن رسول الله كان إذا بعث سرية دعا أميرها فأجلسه إلى جنبه وأجلس أصحابه بين يديه ثم قال: سيروا باسم الله وعلى سبيل الله.. ولا تغدروا. ولا تغلوا. ولا تمثلوا. ولا تقطعوا شجرة إلا أن تضطروا إليها. ولا تقتلوا شيخا فانيا. ولا صبيا. ولا امرأة".

وينهى الصادق عن قتل الرسل. أو قتل الرهن. أو استعمال السم. حتى في حرب المشركين. فإذا كانت حرب فلتكن حربا نظيفة. أي إسلامية.

ولنتذكر في هذا المقام قول "علي" وهو يسير الجند للقتال: "لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم فإنكم بحمد الله على حجة. وتركككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح. ولا تهيجوا النساء بأذى.. إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وهن مشركات..".

وقول الصادق: "نهى رسول الله ﷺ أن يلقى السم في جهاد المشركين.. وعن قتل النساء والولدان في دار الحرب. وعن الأعمى. والشيخ العاني.. وما بيت عدوا قط في ليل...".

وقول الصادق لإحسان معاملة أهل الذمة: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الجزية من أهل الذمة على ألا يأكلوا الربا ولا لحم الخنزير، ولا ينكحوا الأخوات وبنات الأخ وبنات الأخت. فمن فعل ذلك منهم فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله.

فعلى المسلمين ألا يتعرضوا لأهل الذمة بسوء. بل إن عليهم أن يدافعوا عنهم، ما داموا لا ينشرون الدعوة ضد الإسلام. ولا يتظاهرون بارتكاب المنكرات، ولا يؤوون إليهم أعداء الإسلام.

وكل من له كتاب كاليهودي والنصراني، أو شبه كتاب، كالمجوس، فهو ذمي، إذا قبل شروط الذمة والتزم بها. فإذا لم يلتزم فحكمه حكم الحربي.

في المجتمع ودعائمه

الأسرة:

إذا رتبت تعاليم الإمام تصدر تعاليمه للناس قوله: "أصل الرجل دينه وتقواه. الناس في آدم مستوون" وهذه المساواة الفطرية تسبقها البنوة لآدم، ثم يبلغها أغراضها حدب القوي على الضعيف. والعالم على الجاهل، والذي أتيحت له الفرصة على من لم تتح له.

ولما سأل الإمام رجلا: من سيد هذه القبيلة فأجاب: أنا. قال الإمام: لو كنت سيدهم ما قلت أنا..

ولما فصل المكرمات المطلوبة من الناس قال: "المكارم عشر: صدق الناس، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وقري الضيف، وإطعام السائل، والمكافأة على الصنائع، والتذمم للجار، والتذمم للصاحب،ورأسهن الحياء".

فهو يبدأ بالصدق وأداء الأمانة. ثم يتبعها صلة الرحم ولها عنده أعلى مقام. فبها قيام الأسرة – وهي نواة المجتمع الإسلامي – بتنظيمها القانوني الذي لا ضريب له في أمم غير أمة الإسلام.

يقول: "خمسة لا يعطوا شيئا من الزكاة. الأب والأم والولد والزوجة والمملوك. لأنهم عياله ولازمون له" فالإنفاق على هؤلاء فرض. والصدقات مع وجوبها وتعميمها والحث عليها، لا تستحق للناس إلا أن يكتفي ذوو الأرحام. يقول الإمام: "لا صدقة وذو رحم محتاج".

ولو ظن واصل الرحم أنه يضع المعروف في غير موضعه – وللمعروف دائما موضع – فالإمام يقول له: "لا تقطع رحمك وإن قطعك".

وقع كلام بينه وبين عبد الله بن الحسن "وربما كان ذلك من جراء يوم الأبواء، وسلف القول فيه" وكان عبد الله أعلى أهل البيت سنا، فأغلظ عبد الله القول. فلم يرد الصادق. ثم افترقا ثم تلاقيا على باب المسجد. فابتدره الصادق يقول: "كيف أمسيت يا أبا محمد"؟ "فهو أبو محمد المهدي – النفس الزكية – وإبراهيم والباقين، من بني عبد الله بن الحسن". وقال عبد الله كالمغضب: بخير.

قال الصادق: يا أبا محمد. أما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب؟ ثم تلا قوله تعالى: (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) فقال عبد الله: فلا تراني بعدها قاطعا رحما.

يقول الصادق إن رجلا أتى النبي فقال: يا رسول الله إني لي أهلا قد كنت أصلهم وهم يؤذونني وقد أردت رفضهم. فقال له رسول الله: "إن الله يرفضكم جميعا" قال الرجل: كيف أصنع؟ قال: "تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك. فإذا فعلت ذلك كان الله عز وجل لك عليهم ظهيرا".

وكان الإمام يصلي عن ولده في كل ليلة ركعتين وعن والده في كل يوم ركعتين..

يقول في صدد الصلاة عن الميت إنه ليكون في ضيق فيوسع عليه ذلك الضيق، ثم يؤتى فيقال له خفف الله عنك ذلك الضيق لصلاة فلان أخيك عنك.

* * *

وربما أجمل منهاج الصادق في القول والعمل للناس عامة، كلمات له يتناقلها الناس في كل مكان: "خير من الصدق قائله وخير من الخير فاعله".

فهنا فضائل كثيرة مجتمعة. هي الخير. وصنعه. وإمكان الاقتداء بصانعه. وإعلان لرأي الإمام بأن الإيمان عقيدة وعمل. وأن العمل الصالح يحول الفكر المجرد، إلى فعل نافع أو أمر واقع. والعمل هو الوسيلة المنجحة إذا جرى مجرى الأصول. والصادق يروي عن علي: "سمعت رسول الله يقول: عليكم بسنتي: فعمل قليل في سنة خير من كثير في بدعة".

والإمام يرى أن "رأس الحزم التواضع" وأن التواضع هو "الرضى بأن تجلس من المجلس بدون شرفك وأن تسلم على من لقيت. وأن تترك المراء وإن كنت محقا". ويقول: "من أكرمك فأكرمه ومن لم يكرمك فأكرم نفسك عنه".

ويضيف إلى ذلك: "إنك لن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشره عليهم من فضلك". وهذا الفضل بعض المعروف. أما عن تمام المعروف فيقول: "المعروف لا يتم إلا بثلاثة: تعجيله، وتصغيره، وستره".

يقول: "العافية نعمة يعجز عنها الشكر" بل يقول: "المعروف زكاة النعم".

والله تعالى يقول: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها). فما أكثر ما يستحق الناس من المعروف عند المسلم الصادق.

والسخاء سمو، ولو من الجاهل. يقول الإمام: "جاهل سخي أفضل من ناسك بخيل".

فلتتصور مجتمعا يسود فيه السخاء. ويعم العطاء، ويتواتر المعروف، ليتعاون الناس في دنياهم. وتستوثق القربى فيهم، فتزداد لحمة الأسرة وثاقة، ثم تلتزم الجماعة والأفراد بالمكارم العشرة التي نص عليها الإمام! إنه المجتمع الإسلامي!

لنقرأ وصية الإمام لعبد الله بن جندب، لنلمس مواقع الجمال والكمال في هذا المجتمع:

"لا تكن بطرا في الغنى ولا جزعا في الفقر، ولا تكن فظا غليظا يكره الناس قربك. ولا تكن واهنا يجفوك من عرفك. ولا تشار من فوقك. ولا تسخر ممن دونك ولا تنازع الأمر أهله. يا بن جندب: لا تتصدقن على أعين الناس يزكوك. فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك. ولكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك. فإن الذي تتصدق له سرا يجزيك علانية. فقد علم ما تريد".

الأخوة

كان طبيعيا أن تمتد هذه المبادئ السياسية والاجتماعية، الموجهة للأفراد إلى بيئتهم. وأن يكون المقام العظيم للأصحاب والصحبة، وهي القرابة التي يختارها المرء لنفسه ولا تفرض عليه من أسلافه. والصحبة أداة منجحة للتكافل والتكامل. وبها تجتمع "الخلية الأولى" للجماعة الهادفة.

ولعل في اهتمام الإمام بالصحبة والأخوة دليلا على اتجاهه نحو إيجاد مجتمع أو جماعات تتآخى في التشيع. وبمثل هذه الجماعات قامت الدولة الشيعية على نظم مشهورة في الدعوة لها، خافية أو معلنة، وبخاصة نظم الدعوة الإسماعيلية.

وكما حفلت مجالس الإمام ومقولاته بوصف "الجعفري" وبعبارة "شيعتنا". حفلت بتوكيد أسباب التعاون بين الإخوان.

هو أولا يجعل المودة بينهم من الدين فيقول: "من حب الرجل دينه حبه إخوانه" ثم ينتقل من الوضع الديني إلى الاجتماعي فيقول: "وطن نفسك على حسن الصحبة لمن صحبت. وحسن خلقك وكف لسانك واكظم غيظك. أما يستحي الرجل منكم أن يعرف جاره حقه ولا يعرف حق جاره. ليس منا من لم يحسن مجاورة جاره".

وقديما قيل لأبي الأسود الدؤلي تلميذ "علي": "بعت دارك"؟ قال: "بعت جاري" وقيل: الرفيق قبل الطريق".

والإمام الصادق يقول: "أيسر حق من حقوق الإخوان أنت حب لأخيك ما تحب لنفسك وأن تكره لأخيك ما تكره لنفسك وأن تتجنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره وتعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك. وأن تكون عينه ودليله ومرآته. ولا تشبع ويجوع. ولا تروى ويظمأ. ولا تلبس ويعرى. وأن تبر قسمه. وتجيب دعوته. وتعود مريضه وتشهد جنازته. فإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها ولا تلجئه إلى أن يسألكها".

فكل وجه من الوجوه المشار إليها أداة تراحم. تمكن للإخوة الإسلامية. وكل تفريط، مهما قل أمره، أو ضاق زمنه، تنقص من الأخوة الإسلامية. فإذا أطال المسلم قطيعة أخيه. فهي إحدى الكبر. فالمجتمع المتقاطع، هو كالمجتمع بين أعداء.... أو كالجزر المتنازحة في اليم، حدود كل منها مصالحها.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام: "هجرة الرجل أخاه سنة كسفك دمه".

وما أدق نصح الإمام في معاشرة الناس "لا تفتش الناس فتبقى بلا صديق. المؤمن يداري ولا يماري. مجاملة الناس ثلث العقل".

وهو ينهى عن الظنة. فالظنين متهم يقول: "ضع أمر أخيك على أحسنه. ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا".

أما من فرط حيث تجب اليقظة فلا يلومن إلا نفسه – يقول الإمام: "من كتم سره كانت الخيرة بيده" ويقول: "لا تثقن بأخيك كل الثقة فإن سرعة الاسترسال لا تقال" ويقول: "صدرك أوسع لسرك" و"سرك من دمك فلا تجره في غير أوداجك".

ويقول: "من خان لك خانك. ومن ظلم لك سيظلمك. ومن نم إليك سينم عليك".

ولما سئل عن الرجل العدل قال: "من غض طرفه عن المحارم ولسانه عن المآثم وكفه عن المظالم".

obeikandl.com

والإخوان – عند الإمام – هم المواسون، فهم بين ثلاثة "مواس بنفسه وآخر مواس بماله وهما الصادقان في الإخاء، وآخر يأخذ منك البلغة ويريدك لبعض اللذة فلا تعده من أهل الثقة".

* * *

والإمام يأمر بالرفق بالناس. فينبه الذين يتطاولون ليتطامنوا. فيقول: "من الجور قول الراكب للراجل: "الطريق"" فهو الراكب، وبيده الزمام، والطريق للناس كافة، وكفى لاراجلين أنهم يمشون وكفاه أنه فوق ظهر.

يقول الإمام: "لا تسم الرجل صديقا، سمعه معرفة، حتى تختبره بثلاثة: تغضبه فتنظر غضبه أيخرجه عن الحق إلى الباطل. وعند الدينار والدرهم. وحتى تسافر معه".

ويقول: "ثلاثة لا تعرف إلا في مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب. ولا الأخ إلا عند الحاجة" ومن التبذل تنقص الكرامة. يقول: "لا تمار فيذهب بهاؤك. ولا تمزح فيجترأ عليك. ولا جهل أضر من العجب".

والغضب عند الإمام "مفتاح كل شر، بما فيهمن ذبذبة للذات وزعزعة للتوازن، فعنده أن "من ظهر غضبه ظهر كيده"، بل إن "من لم يملك غضبه لم يملك عقله" في حين أن "المؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق وإذا رضى لم يدخله رضاه في باطل".

ويهتف الإمام بالشيعة: "يا شيعة محمد. ليس منا من لم يملك نفسه عند الغضب، ويحسن صحبة من صاحبه،ومرافقة من رافقه، ومخالفة من خالفه".

وأي أدب للنفس والعقل كمثل ذلك الذي يعبر عنه الإمام بإحسان المخالفة! وما هو إلا الحلم والأناة، قرظهما رسول الله للمنذر إذ أتاه، في وفد عبد القيس، فقال له: "فيك خلتان يحبهما الله عز وجل: الحلم والأناة".

وفي عبارات تأخذ شكل ثلاثيات، قليلة العدد جليلة الفحوى، يجمع الإمام آلاف الرذائل المدمرة في ستة أصحاب خرق. هم كالجيوب المخرورقة للمجتمع لا تبقي ولا تذر: وهم المرائي والسكلان والمسرف والمنافق والحاسد والظالم، تشتعل بنقائصهم نيران الرذالات جمعاء، وإذ يتكاثرون في كل مكان، بالعدوى والنتائج، ويستهين الناس بخطرهم على أنفس الأفراد ومقومات الجماعة وقوة الدولة. مع أن أخطارهم السلبية تتوازن في ضررها مع أعظم الإيجابيات فتفقد الأمم تماسكها.

وجمعها في صعيد واحد، وإجمالها في كلمات، آية على نفاذ البصيرة وإحسان البيان. يقول الإمام:

للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده. وينشط إذا كان الناس عنده. ويحب أن يحمد بما لم يفعل.

وللكسلان ثلاث علامات. يتوانى حتى يفرط.. ويفرط حتى يضيع. ويضيع حتى يأثم.

وللمسرف ثلاث علامات. يشتري ما ليس له. ويأكل ما ليس له. ويلبس ما ليس له.

وللمنافق ثلاث علامات. إذا حدث كذب. وإذا وعد أخلف. وإذا اؤتمن خان.

وللحاسد ثلاث علامات. يغتاب إذا غاب. ويتملق إذا شهد. ويشمت بالمصيبة.

وللظالم ثلاث علامات. يعصى من فوقه. ويعتدي على من دونه. ويظاهر الظالمين.

ولكل واحدة من هذه العلامات شعب يبلغ العلم بها أكثر من ألف باب.

المرأة

في فقه الإمام عناية بالغة بالنساء في الزواج والطلاق والميراث.. وهي دعائم الأسرة وقوائم المجتمع. وقد عرضنا لبعضه، قبل. لكن اهتمامه الاجتماعي بالأسرة أو بالمرأة لا يقف عند الحكم الفقهي وإنما يتعداه إلى الترغيب والتهذيب بالنصح الدءوب. فمرآة المجتمع العظيم الأسرة السعيدة، وزينتها وحليتها المرأة الصالحة. وهي نصف الناس، وأم الجميع.

يقول الإمام: "اتقوا الله في الضعيفين: اليتيم والنساء".

ويقول: "البنات حسنات والبنون نعم. الحسنات يثاب عليها. والنعم مسئول عنها".

وإذا كان البنات حسنات يلقى بهن المرء بارئه. فيزدنه درجات، فالإمام يجعل للأمهات درجة في طاعة أوامرهن، فيأمر بالمبادرة بطاعة الأم، إذا دعا الأبوان.

ويلقي على الأم في دارها واجب استثمار الزمن في خدمة الأسرة والأمة. ويفرض على المجتمع واجب إحصان أفراده بالتيسير في المهور. وعلى المرأة واجب التعاون في إنجاح الزوجية بالوفاء بحق الزوج. ويجمع بين حسن التبعل وبين حسن الجوار. فيقول: "الشؤم في المرأة كثرة صداقها وعقوق زوجها – وفي الدار ضيق ساحتها وشر جيرانها".

يقول عليه الصلاة والسلام: "علموا أبناءكم السباحة والرماية ونعم لهو المرأة في بيتها المغزل" فهن مطالبات ألا يفتحن الأبواب للشيطان بالفراغ. مطالبات بأن يعملن ما يجمل بهن. والمرأة التي تمسك المغزل بيد، وتهز مهد الطفل بيد، تضم بين ذراعيها أسرة سعيدة. ولقد كان النساء آخر ما أوصى به ﷺ.

يقول الإمام: "صلاح حال التعايش على مكيال ثلثاه فطنة وثلثه تغافل".

وهذه الأثلاث تتردد في مضامين ثلاثيات شتى، تجتمع وتفترق، لكنها كلها أركان لسعادة المجتمع الكبير الذي هو الأمة، والصغير الذي هو الأسرة. وقد سلف علينا في ثلاثية سابقة كيف قرن نكد الزوجية، بالنكد في الجيرة والسلطان الجائر. وهنا يستلفت الأنظار إلى ما يجب من إحسان العشرة، بالسلوك الرفيع والإنفاق اللازم. واحترام الذات حيث يقول: "إن المرء يحتاج في منزله وعياله إلى ثلاث خلال يتكلفها، وإن لم يكن في طبعه ذلك: معاشرة جميلة. وسعة بتقدير، وغيرة بتحصن".

ثم يقول ليبين أثر المرأة في سلام الأسرة: "ثلاث من ابتلي بهن كان طائح العقل: نعمة مولية، وزوجة فاسدة، وفجيعة نجيب" فهو يضع فسادها في منزلة بين المنزلتين. النعمة الضائعة، والفجيعة الحالة. في حين يقدمها عند صلاح حالها على فلذة الكبد والصديق الصافي إذ يقول: "الأنس في ثلاثة: الزوجة الموافقة والولد البار والصديق الصافي".

والرجل رأس الأسرة، لا يلقى مقاده أو مقادها إلى الزوجة. وإلا غرقت السفينة. يقول الإمام: "ثلاثة من استعملها فسد دينه ودنياه. من ساء ظنه، وأمكن من سمعه، وأعطى قياده حليلته".

وفي هذه الثلاثية تجتمع سلبيات خلقية ثلاثة في دنيا الرجل. فتحل الأشباح محل الأشياء، والأصداء محل الأصوات، والنساء محل الرجالة. وليس هذا عالم المسلمين.

وفي ثلاثية أخرى نرى تصنيفا من نوع خاص "النساء ثلاثة: واحدة لك وواحدة عليك ولك. وواحدة عليك. أما التي لك فهي العذراء. والتي لك وعليك فهي الثيب. أما التي عليك فهي المتبع التي لها ولد من غيرك" وإنما ينبه الإمام الرجال ليزداد برهم بمن يمنكم أن تكون لهم أو عليهم، كي يتكلفوا لها خصالا نص عليها: معاشرة جميلة وسعة بتقدير وغيرة بتحصن.

العلم

أينما ذهبت في سيرة الإمام فثم وجه العلم، والتعويل على العلماء، والتمسك بالخلق العلمي وأساليبه:

يقول لعنوان البصري: "اسأل العلماء ما جهلت وإياك أن تسألهم تعنتا وتجربة. وإياك أن تعمل برأيك شيئا. وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلا. واهرب من الدنيا هربك من الأسد...".

ويقول لحمران بن أعين: "العمل الدائم القليل، على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير، على غير يقين".

وهذان القولان لعنوان وحمران نصيحتان نابعتان من منهج الإمام في الفقه وأصوله. فهو يلتزم الأشياء الثابتة والنصوص الواضحة، لأنها نقطة الارتكاز. وينصح بعدم المجازفة في طريق غير مؤكدة، يقول: "العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا تزيده سرعة السير إلا بعدا".

ومن المنهج حسن التلقي وحسن الأداء فهو لا يحب المحال والعنت كما قال لعنوان: "الجهل نقص في الدين والخلق ومعاملة الناس"، أو كما قال: "الجهل في ثلاث: الكيد، وشدة المراء، والجهل بالله".

ويقول: "ثلاث يستدل بهن على إصابة الرأي: حسن اللقاء، وحسن الاستماع، وحسن الجواب" – أما البلاغة فهي "ليست بحدة اللسان ولا بكثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة".

وقديما قيل: البلاغة الإيجاز. وقيل: من البلاغة حسن الاستماع.

والصادق ينبه العلماء والأدباء وكل صاحب موهبة، على أن "من أدب الأديب دفن أدبه".

إنما الطريق القاصدة طريق التقوى والاجتهاد والتأمل. يقول: "كثرة النظر في العلم تفتح العقل وكثرة النظر بالحكمة تلقح العقل" و"من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع، والمعارضة قبل أن يفهم، والحكم بما لا يعلم" و"الرجال ثلاثة: عاقل، وأحمق، وفاجر. العاقل إن كلم أجاب. وإن نطق أصاب، إن سمع وعى. والأحمق إن تكلم عجل. وإن حدث ذهل، وإن حمل على القبيح فعل. والفاجر إن ائتمنته خانك وإن حدثته شانك".

ومن إجلاله وظيفة المعلم يقول: "أربعة ينبغي لكل شريف ألا يأنف منها. أولها خدمته لمن تعلممنه.....".

و"العلم جنة.. والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس. والله ولي من عرفه. العاقل غفور والجاهل ختور... ومن خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم. ومن هجم على أمر من غير علم جدع أنف نفسه". و"أكمل الناس عقلا أحسنهم خلقا".

و"الخشية طريق العلم. والعلم شعاع المعرفة وقلب الإيمان. ومن حرم الخشية لا يكون عالما".

الدعاء

منهج أهل البيت في إصلاح الدنيا هو المعرفة. وأولها معرفة الخالق جل شأنه بالعقل، وتثبيت الفهم بالخشوع والتقوى.فليس في غيرهما قناعة أو جدوى. يقول عليه الصلاة والسلام وعلى آله: "أعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع". وفي ذات يوم ذهب قوم يقولون للإمام الصادق: ندعو. فلا يستجاب لنا! فأجاب: "لأنكم تدعون من لا تعرفونه" فمعرفة الله مطهرة للحياة. وصلة وثقى بين الرجاء والرضى وبين الدعاء والاستجابة.

والدعاء تزكية للنفس وسبيل لها إلى خالقها – بإخلاص تام – فهو ترياق من نفس الإنسان ومعراج إلى رضا السماء بالالتجاء الكامل إلى الله، والانفصال في وقت الدعاء وحواليه عن الرذيلة. فإذا تعددت أوقاته، تكرر الانفصال مما يشين. وازداد العبد قربا، وأوقات قرب، من خالقه سبحانه. بالتكرار، وإخلاص النية – ومن أجل ذلك يبرز الدعاء في مناهج الشيعة. ومؤلفاتهم كالصحيفة السجادية – نسبة إلى زين العابدين وفيها عشرات الأدعية.

والبعض يسميها مزامير أهل البيت – ومصباح التهجد ومختصر المصباح وهما من مؤلفات الطوسي.

ومن ضروب التربية العصرية الإيحاء إلى الذات.. وفي الدعاء إيحاء ورجاء، وتوجه إلى الله، وسعي لمرضاته.

وللأئمة دعوات مأثورة، تحويها صحف مشهورة، ولها مناسبات معلومة، وأوقات تمارس فيها. في الأصباح والأمسية والأيام والليالي والشهور. كأدعية ليلة الجمعة، أو رجب أو شعبان أو رمضان. وللصادق أدعية تتردد في كتب الصوفية، فيها الإيحاء العميق بالفضائل إلى نفس من يدعو. في موقف يعلم أن الله حاضره. وأنه المرجو سبحانه. فهو أداة إصلاح نفساني مقطوع النظير، فوق أنه نداء، يتعالى نحو السماء، في التماس المغفرة.

يقول "الشعبي" شيخ المحدثين من أهل السنة: "عجبت ممن يقنط ومعه الممحاة". قيل وما الممحاة؟ "قال: الاستغفار".

ولقد كان الصادق يدعو الله في كل أوقاته. ومنها لقاءاته مع أبي جعفر حيث كان يدعو الله قبل أن يدخل عليه. فيثبت الله جنانه. ويحيل بطش الجبابرة إلى ما يشبه طنين الذباب. ومن المأثور عنه قوله: "إن الدعاء يرد القضاء. وإن المؤمن ليذنب فيذهب بذنبه الرزق".

الفصل الثالث

المنهج الاقتصادي

"ليس خيركم من ترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته. خيركم من أخذ من هذه لهذه".

"حديث شريف"

ليس المنهج السياسي أو الاجتماعي – ومنهما الاقتصادي – إلا متابعة للمنهج العلمي من الواقعية وإعمال العقل والعمل للتقدم، وفق حاجات الزمن واختلاف الأقاليم، على أساس المساواة بين الناس وعمارة الدنيا بالعدل وإحسان القيام على مرافقها.

والمنهجان – سواء العلمي أو السياسي الاجتماعي – ينبعان من القرآن وتطبيقات السنة. وهما وجهان لعملة واحدة هي القيم الإسلامية. فكل ما أبعد من هذه القيم لا يكون إسلاميا وإن انتظم مسلمين. فالمسلمون لا يصلحون إلا أن يلتزموا قيم دينهم. وقد أصلها الإمام علي، وتابعه فيها الأئمة من بنيه.

ومن القيم الاجتماعية السليمة تنشأ القيم الاقتصادية المنجحة، ولذلك تتجلى الوحدة الموضوعية بين الدين والسياسة والاقتصاد، والوحدة الفنية بين علمي المالية والاقتصاد وبينهما وبين فن الإدارة، في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للأشتر النخعي.

وسنرى بعض المقولات فيه تكاد تكتب في النصف الثاني من القرن العشرين للميلاد بأيدي المصلحين الاقتصاديين العالميين. فهي عصرية أبدا لأنها إسلامية خالصة.

يقول: "وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم. ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس عيال على الخراج وأهله.. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في جباية الخراج. لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد. ولم يستقم أمره إلا قليلا.. ولا يثقلن عليك شئ

خففت به المؤونة عليهم فإنهم ذخر يعود عليك في عمارة بلدك وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك[١٢٩] باستفاضة العدل فيهم.. فربما يحدث من الأمور ما إذا عول فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم".

أما عن "نشاط الأفراد" في التجارة والصناعة والزراعة والخدمات، والبيع والشراء، وعن حرية الاتجار والانتقال والعمل كأداة للإنتاج، ففيها التعبير العلمي الرفيع عن التاجر والعامل، إذ يسميهما "المضطرب بماله" و"المترفق ببدنه". وفيها التأييد والتيسير والإشراف والمتابعة من السلطة والتعاون بين الراعي والرعية حيث يقول:

"ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا، المقيم منهم، والمضرب بماله، والمترفق ببدنه. فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح.. فإنهم سلم لا تخاف بائقته. وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقا فاحشا.. وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع. فامنع من الاحتكار..".

أما الطبقة الأخرى. وهي التي تمثل اليد السفلى، لعجزها، ولأنها تأخذ من اليد العليا لاقتدارها. فأوامره في صددها قاطعة. يقول:

"ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى. فإن في هذه الطبقة قانعا ومعترا.. واجعل لهم قسما من بيت مالك..".

ولقد سلف القول عن المنهج السياسي لدى أمير المؤمنين. وهو المساواة التامة بين المسلمين في العطاء وحقوق بيت المال وترك الأرضين في أيدي أصحابها بعد الفتح، وغير ذلك مما يكشف لنا منهاجه الاقتصادي بتمامه. وفيما أوضحناه إشارة إلى ما لم نعرض له بتوضيح.

---

(١٢٩) فرحك.

والنظريات تكشف كليات. والكليات والجزئيات والتطبيقات ينتظمها جميعا أصل ثابت من قول الرسول: "ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه. ولكن خيركم من أخذ من هذه لهذه".

العمل

العمل عند الشيعة قوة الإنتاج الكبرى. ومن أجل ذلك كان العمل للمعاش فرضا على المؤمن ليحيا في هذه الدنيا، ولا يجوع فيها ولا يعرى، أو تجرفه القوى، أو يحرفه الفراغ واللهو. أو تفسده طراوة الدعة – وأول ما ينبغي له البدء بتقوية النفس، وتبرئتها من الشح والطمع، وحثها على طلب الحلال. يقول الإمام: "مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب العطشان منه ازداد عطشا "و" أربعة تذهب ضياعا. الأكل بعد الشبع والسراج في القمر، والزرع في السبخة، والصنيعة عند غير أهلها" – أما المؤمن فهو "من طاب مكسبه وحسنت خليقته ووضحت سريرته وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من كلامه وكفى الناس شره وأنصف الناس من نفسه، وهو حسن المعونة خفيف المئونة جيد التدبير لمعاشه ولا يلسع من جحر مرتين".

ثم يضع الإمام الضوابط للسعي في الحياة وتحصيل المعايش فيقول: "ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع. ودون طلب الحريص الراضي بدنياه، المطمئن إليها. أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف. وترفع بنفسك عن منزلة الواهن الضعيف. وتكسب ما لا بد منه للمؤمنين".

وهو إذ يوصي بالإجمال في الطلب، ينادي بالحكمة في الإنفاق، فيقول: "إن السرف يورث الفقر وإن القصد يورث الغنى".

وتدبير المعاش أساسي ليجتمع للمرء مال يكفي نفسه، ويفضل منه على غيره، ويؤدي به واجبه في الدين والدنيا. ومن أجل ذلك كان الصادق يعمل بيده، ويتجر، وينفق أمواله على الناس، وهو الإمام القدوة، ليوجه أنظار شيعته للعمل في الحياة الدنيا، كي يقدروا على أعباء الحياة وأداء الزكاة وصلة الرحم والإنفاق في المحتاجين. ولا يمكن المرء من كل ذلك إلا رزق

يحصله من دأبه. يقول الإمام: "من لم يكن فيه خصلة من ثلاث لم يعد نبيلا. من لم يكن له عقل يزينه أو جدة تعينه أو عشيرة تقصده".

والصحابة العظماء كانوا يعملون ليعيشوا. وما أكثر ما عمل "علي" ليعيش – وهو تراث أهل البيت الذين لا يضيعون الزمان سدى. يقول الإمام: "الأيام ثلاثة: يوم مضى لا يدرك. ويوم الناس فيه ينبغي أن يغتنموه. وغد في أيديهم أمله" وما الاغتنام إلا بالعمل الصالح للنفس وللناس. أما من قعد يلتمس عطاء الآخرين فيده هي السفلى. ومثله مثل القاعدة عن العبادة. أو كالذي ينتظر الذهب والفضة تساقطان من السماء.

يقول عن القاعدين: "الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر".

والشيعة في كل مجتمعاتهم يدأبون كدأب آبائهم أو أشد. ويتقلبون في البلاد بتجاراتهم، كهيئة ما كانوا يتقلبون في الأيام الأولى. مع إلزام صاحب المال المسئولية عن طريقة كسبه وأبواب إنفاقه.. يقول يحيى بن معاذ: "مصيبتان لم يسمع بمثلهما في الأولين والآخرين للعبد في ماله عند موته: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله".

وهم إلى جوار إيجابهم العمل يوجبون الاستقلال فيه. وعدالة توزيع الرزق منه. فلا يجوزون الشركة المطلقة بين اثنين في كل نشاطهما... وشرط الشركة وجود رأس المال. وهم يسمون الشركة بدونه "شركة أبدان" ولا يصححونها، لأن كل إنسان مستقل بجهده. ومنافع جهد له – فإذا أخذ من الآخر أخذ مالا يستحق – وفي هذا حض على الاستقلال الشخصي، والسعي الخاص، حتى لا يكون أحد كلا على غيره. وكمثلهم الشافعي لا يجوز هذه الشركة فلكل ما سعى.

وهم أعداء للتواكل – جاء أمير المؤمنين عليا العلاء الحارثي فقال: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصما.لبس العباءة وتخلص من الدنيا. قال: علي به. فلما جاء قال: "يا عدو نفسه. لقد استهام بك الخبيث. "الشيطان" أما رحمت أهلك وولدك. أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها: أنت أهون على الله من ذلك "قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة

ملبسك وجشوبة مأكلك! قال: "ويحك إني لست كأنت. إن الله قد فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس".

ولكم كان رقيقا صاحب هذا الملبس الخشن إذا عامل الضعفاء.. ولو كانوا غير ناس، أو كانوا من الأعداء: كان يوصي من في يده إبل الصدقة ألا يحول بين ناقة وفصيلها، وأن لا يبالغ في حلبها خشية أن يضر ذلك بوليدها. وأن لا يركب ناقة ويدع غيرها. بل يسوي في الركوب بينها وبين صاحباتها.

ولما حال بينه وبين الماء جند معاوية حاربهم عليه فأجلاهم عنه. ثم سقاهم منه! ليسويهم في الماء بجنده!

المضرب بماله والمترفق بيده. أو: التجارة والصناعة

إذا كانت الحضارة الغربية لم تفطن إلى أن العمل أداة الإنتاج الأولى إلا في العصور الأخيرة فلقد طالما أعلنت ذلك السماء. والعمل التجاري أو اليدوي ميراث الأنبياء. ومن عمل الصحابة تعلم الناس جلال قدر المضطرب بماله أو المترفق بيده، أو ببدنه، كما يعبر أمير المؤمنين.

والصادق يمسك المسحاة ويعمل في بستان له،وحبات العرق تنساب كالبلور المذاب. فيجيبه: "إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة"، وكان عندئذ يلبس قميصا ويفتح الماء بالمسحاة ويقول: "إني لأعمل في بعض ضياعي ولي ما يكفيني ليعلم الله عز وجل أني أطلب الرزق الحلال".

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يتناوب ركوب راحلته يقول لزميليه في السفر "علي وأبي لبابة" حينما أرادا أن يستمر راكبا في نوبتهما: "ما أنتما بأقوى على المشي مني. وما أنا بأغنى عن الأجر منكما" وكان ينزل عن بغلته ليركب من يأخذ بزمامها معه. ويقول لمن يريد حمل شئ بدلا منه: "صاحب الشئ أولى بحمله".

أما أمير المؤمنين علي فيحمل لأهله التمر والبلح في ثوبه ويقول:

لا ينقص الكامل من كماله ما جر من نفع إلى عياله

ويروي "علي" أن الزهراء أجرت الرحى حتى أثرت الرحى بيدها. وقمت البيت حتى اغبرت ثيابها. وأوقدت القدر حتى اسودت ثيابها وأصابها من ذلك ضر. ويقول عطاء:

إن كانت فاطمة لتعجن حتى أن قصتها لتصيب الجفنة.

وأي عظمة في الدنيا كعظمة اليد العليا، وهي تعمل لبناية الدنيا فتعطي.

لقد قبل رسول الله اليد التي تحمل المسحاة يوم أقبل من تبوك، فلقيه سعد الأنصاري فنظر إلى يد سعد وقال: "ما هذا الذي أكتب يديك"؟ فقال: يا رسول الله أضرب بالمر والمسحاة فأنفقه على عيالي. فقبل رسول الله يده وقال: "هذه يد لا تمسها النار".

ولما أعطى الرسول اليد العاملة أمانا من النار، جعل العمل عبادة. وإن ورد النص على العمل البدني. فما هي إلا إشارة لكل عمل. وهو عليه الصلاة والسلام القائل: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي الجبل فيجئ بحزمة حطب على ظهره فيبيعها، ويستغنى، خير له من أن يسأل الناس. أعطوه أو منعوه".

وهو عليه الصلاة والسلام – وعلى آله – ينبه على قيمة الوقت والالتزام بالواجب، والبدء بالعمل النافع فيقول: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها. وإن استطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها".

وأي جلال كجلال رسول الله وهو يعمل بيده. من أجل تحرير شيخ من أشياخ الشيعة العظماء، ليحفظ الشيعة لأنفسهم وللدنيا معهم، ذلك الدرس العظيم: أن العمل والحرية صنوان وأن كلا منهما وسيلة للآخر.

أرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب إلى خليسة مولاة سلمان الفارسي، وكانت قد اشترته بثلاثمائة درهم من أعراب حملوه إلى يثرب. ومكث معها ستة عشر شهرا حتى قدم النبي يثرب. فسميت المدينة. فأتاه سلمان فأرسل النبي عليا إلى خليسة، بعد أن أسلمت، لتعتق سلمان. قالت: قل للنبي: إن شئت أعتقته، وإن شئت أعتقته، وإن شئت فهو لك. قال ﷺ: "أعتقيه أنت" فأعتقته. فغرس لها رسول الله ثلاثمائة فسيلة.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول: "سلمان منا أهل البيت"(١٣٠).

---

(١٣٠) أضافه النبي إلى أهل البيت فصلا من النبي في تنازع المهاجرين والأنصار عليه إذ كان كل من الفريقين يريده واحدا منهم.

وكان سلمان في انتسابه لأهل البيت حيث أراد صاحبه ﷺ فهو صاحب الرأي بحفر الخندق في يوم غزوة الخندق "الأحزاب" وعلي هو الذي قتل عمرو بن عبدود فارس العرب يوم ذاك – فلأهل البيت في هذه المعركة القدح المعلى.

وكان حكيما. إذا خلال به رسول الله لم يبغ أحدا غيره. عينه عمر أميرا على المدائن عاصمة فارس فكان يوزع عطاءه على الناس "خمسة آلاف درهم" ويعمل الخوص بيده ويبيعه بثلاثة دراهم ينفق واحدا ويتصدق بواحد ويشتري خوصا جديدا بواحد. وذات يوم دخلوا عليه دار الإمارة فوجدوه يعجن بيده. قال: بعثنا الخادم في عمل فكرهنا أن نجمع عليه عملين.

رآه رجل قادما من الشام فحسبه من ضخامة جسمه حمالا. فأعطاه حملا وقال: اتبعني. فحمله وتبعه. ورآه الناس فتسارعوا يحملون حمل الأمير قال: لا.. فرجاه الرجل، إذ أدرك مقامه، فأبى وقال: لا حتى أبلغ منزلك. وثمة وضع الحمل في مكانه وقال: "إني احتسبت بما صنعت خصالا ثلاثة: إني نفيت عني الكبر. وأعنت رجلا من المسلمين على حاجته. وإن لم تسخرني سخرت من هو أضعف مني فوقيته بنفسي".

فهو يحمل الحمل عن رجل ضعيف. ولا يخزي صاحب الحمل بتعريف نفسه. وينفي عنها الكبر وهو أمير فارس! لكنه يحفظ وصية صاحبه ﷺ فيقول: "أوصاني خليلي ألا يكون متاعي من الدنيا إلا كزاد الركب".

وحسبه قول أمير المؤمنين علي عنه: "من لكم بمثل لقمان الحكيم".

ومع أن الإمام الصادق يرى إنفاق المال في البر تجارة مربحة فيقول: "إني لأملق أحيانا فأتاجر مع الله بالصدقة فيربحني وأتسع" أي أنه يوجب الإنفاق، في حالي اليسر والإملاق، ويرى علاجا للفقر أن يتعامل مع الله بعطائه للفقراء، فهو في الوقت ذاته يشجع الناس على العمل.

فالمجتمع الشيعي مجتمع العاملين لا يتسع للمتسولين والإمام الصادق – من جراء ذلك – يؤثر عطاء الذين لا يسألون الناس على الذين يسألون.

ولو قام أهل الإسلام بواجب الإنفاق لما افتقر مسلم واحد. فالعمل بكل أموال الأمة يجعل الحبة الواحدة مائة حبة. ذلك تقدير العزيز الحكيم في تشريعه. والصدقة تربى أو على الأقل لا تنقص. يقول عليه الصلاة والسلام: "ما نقصت صدقة من مال" بل يقول: "إنما ترزقون بضعفائكم".

والعمل في الصناعة والتجارة مدرسة الدنيا. ووسيلة لعمارتها بالكسب الحلال. وأداء حق المال. وهو محل إكبار المسلمين أجمعين. يتراءى في كثير من أسماء جلة الفقهاء[١٣١].

والصادق هو القائل: "الشاخص في طلب الحلال كالمجاهد في سبيل الله" والقائل: "إني لأرى الرجل فيعجبني فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا "لا" سقط من عيني".

ويقول الإمام الباقر: "الصدقة لا تحل لمحترف ولا لذي مرة سوي". فالمحترف غني بحرفته. وذو القوة غني باقتداره على العمل.

---

(١٣١) أطلقت الأوصاف في كثير من الحرف على عظماء الفقهاء الذين يحترفونها "الخصاف – القدوري – الكرابيسي – القفال – الصابوني – الحلواني – النعالي – البقالي – الصفار – الجصاص – التبان..الخ" – وقد عمل أئمة أهل السنة الأربعة. وعمل الصحابة والتابعون.

ومن علماء الشيعة نصر بن مزاحم "مؤلف كتاب صفين" وداود بن أبي زبيد. وداود بن سرحان:كانوا عطارين. وميثم التمار يبيع التمر. ومؤمن الطاق. وخالد بن سعيد ومحمد بن خالد وصبيح بن أبي الصباح كانوا صيارفة. والشيخ آدم. كان يبيع اللؤلؤ. ورفاعة بن موسى كان نحاسا. وابن حدير كان طحانا. وعبد الله بن ميمون كان قداحا "يبري القداح".

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: "ملعون من ألقى كله على الناس".

سأل إبراهيم بن أدهم (١٦٢) تلميذه شقيق البلخي (١٩٩٥) وهما الزاهدان الشهيران: ما بدء أمرك الذي أبغلك هذا؟ قال شقيق: مررت ببعض الفلوات فرأيت طائرا مكسور الجناحين في فلاة من الأرض. فقلت انظر من أين يرزق هذا. فقعدت بحذائه: فإذا بطير أقبل وفي منقاره جرادة فوضعها في منقار الطير مكسور الجناحين. فقلت في نفسي: إن الذي قبض هذا لهذا قادر أن يرزقني حيث كنت. فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة.

قال إبراهيم: ولم لا تكون أنت الطير الصحيح الذي أطعم الطير العليل حتى تكون أفضل منه؟ أما سمعت عن النبي ﷺ أن "اليد العليا خير من اليد السفلى".

وخرج الإمام الصادق يسعى للرزق في يوم صائف شديد الحر. فقالوا: يا ابن رسول الله هذه حالك عند الله عز وجل، وقرابتك من رسول الله، وأنت تجهد نفسك في هذا اليوم! فقال لمن حدثه: "خرجت في طلب الرزق لأستغنى عن مثلك".

ولما أخبروه يوما عن رجل يقول: لأقعدن ولأصلين ولأعبدن الله قال "هذا أحد الذين لا يستجاب لهم".

* * *

ولا بأس أن يجد العامل في عمله بعض مشقة. فما هي إلا زيادة في الفضيلة فيه أو الهناءة به.

جاءه من يرجوه ليدعو الله ألا يجعل رزقه على أيدي العباد، فأجابه: "أبى الله عليك ذلك. آلى الله إلا أن يجعل رزق العباد بعضهم من بعض، ولكن ادع الله أن يجعل رزقك على أيدي خيار خلقه. فإنه من السعادة. ولا يجعله على أيدي شرار خلقه. فإنه من الشقاوة".

والصادق بهذا التنبيه يلفت النظر إلى أن التعامل يقتضي وجود طرفين، والسعيد من صلح طرفه الآخر. وهو فوق ذلك يكمل نقصا لدى كثير من الصالحين الذين يفوتهم أن خوض الغمرات للرزق، مع النجاة من ارتكاب الإثم في تحصيله، درجة أعلى من الفضل – بل هو يبصرهم بالمكروه الذي يلقاه الناس إذ يبتغون غضارة العيش أو نضارة الحياة. يقول: "ليس من أحد وإن ساعدته الدنيا بمستخلص غضارة عيش إلا من خلال مكروه".

والغضارة نضارة ووضاءة وصلاح بال، لا يمكن أن تكون بمعدى عن المكاره، ومنها الإيجابي الذي يستوجب النضال، ومنها سلبي،يتراءى فيما يفقده المرء من ذات نفسه بإضعاف قدرته على التحمل، أو منعها من العمل، أو مصير ذاته إلى الترهل. ومنها ما يتقاضاه الناس من أعراض الناضرين غذ يمسون أغراضا لسهام الكلام.

وإنما ينضر الله عبدا سمع مقال الرسول ووعاه أسلوبا في الحياة، وما هو إلا الجد وأداء الواجب، والاقتصاد في مظاهر الرفاه. وهو أقوم وأسلم.

وينضر الإمام وجه العمل ذاته ليزيد العمال قوة،ويزيد الأداء أناقة، وصلات المتعاملين وثاقة، حيث يقول: "كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خصال يجتلب بها الكسب: أن يكون حاذقا بعمله. مؤديا للأمانة. مستميلا لمن استعمله".

ولما ختم الخصال الثلاثة بالاستمالة كان يوجه من استعمل غيره أو استعمله غيره: ليدخل قلب عميله في حسابه. فهذا درس إسلامي اجتماعي في المحبة، مثلما أنه درس اقتصادي في إحسان الصناعة ووثاقة العلاقة، ولباقة الأخذ، ولباقة العطاء، والحياة كلها أخذ وعطاء.

التجارة:

روى المعلى بن خنيس تابع الإمام[١٣٢]: رآني أبو عبد الله وقد تأخرت عن السوق فقال: اغد إلى عزك.

قال معاذ: قلت لأبي عبد الله: هممت أن أدع السوق. قال: "إذن يسقط رأيك ولا يستعان بك على شئ".

وقال لمن ترك التجارة: "لا تتركها فإن تركها مذهبة للعقل. اسع على عيالك. وإياك أن يكونوا هم السعاة عليكم".

وسأل عن تلميذ له: ما حبسه عن الحج؟ فقيل: قل شيئه. فاستوى جالسا – وكان متكئا – وقال: لا تدعوا التجارة فتهونوا.

وكسب المال من حله وإنفاقه في محله واجبان على المسلم. والتجارة ممارسة وتعامل، أي مران على الشئون العامة والخاصة. والتاجر أعلى عينا بالأمور. وأقدر على مد يد العون للآخرين – وفي الاضطراب في الأسواق إثراء للجماعة، وتخطيط مشترك للمعايش، وهو قبل ذلك امتحان مستمر للنزاهة والبعد عن المحرمات.

وعناية الشيعة بتوضيح الحلال والحرام في التجارة ظاهرة في نصوص الفقه. فالمحرم مما يكتسب به أنواع:

---

(١٣٢) قتله داود بن علي – أمير المدينة لأبي جعفر المنصور – وصادر ما تحت يديه، من أموال كانت أموال الإمام الصادق، في نوبة من نوبات البطش التي اجتاحت المدينة وأهل البيت، بتهمة أنه لم يدل داود على اثنين من العلويين كان يبحث عنهما – وقصد الإمام إلى دار الإمارة يصيح في وجه داود بل يتهدده "قتلت مولاي وأخذتا مالي.. أما علمت أن الرجل لا ينام على الحرب"؟ فتنصل داود من المسئولية وأمر بقتل القاتل فصاح هذا الأخير: "يأمرونني بقتل الناس فإذا أمرت بقتلهم قتلوني!".

openkanar.com

١- الأعيان النجسة كالخمر.

٢- الآلات المحرمة.. كآلات القمار.

٣- ما يقصد به المساعدة على المحرم كبيع السلاح لأعداء الدين.

٤- ما لا ينتفع به كالمسوخ.

٥- الأعمال المحرمة كالغناء عدا المغنية لزف العرايس، إذا لم تغن بالباطل ويدخل عليها الرجال، والنوح بالباطل: أما بالحق فجائز، وهجاء المؤمنين. وتعليم السحر والكهانة.

٦- الأجرة على القدر الواجب من تغسيل الأموات.

ولا بأس بالرزق من بيت المال. وكذا على الأذان. أما جوائز الظالم فمحرمة إن علمت بعينها، والولاية من العادل جائزة، وربما وجبت. والولاية من الجائر محرمة، إلا مع الخوف، فلو تيقن التخلص من المأثم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استحبت.

* * *

وكما يعمل الإمام بيده ليتعلم الناس، يتجر بماله ليعلمهم دروسا في التجارة – بالتطبيق العملي الذي تشهده الملايين فتتعلم. وهو أجدى عليها من أن تعطي ملايين تنفقها ولا تتعلم.

دعا يوما مولاه مصادف فأعطاه ألف دينار وقال له:تجهز حتى تخرج إلى مصر فإن عيالي قد كثروا. فتجهز بمتاع وخرج مع التجار حتى إذا دنوا من مصر، استقبلتهم عير خارجة منها، فسألوهم عن المتاع الذي يحملونه ما حاله في مصر، وما متاع العامة؟ فعلموا منهم أن ليس بمصر منه شئ فتحالفوا على ألا ينقصوا من ربح دينار دينارا.. ووسع عليهم في الربح. ثم

فصلت العير عن مصر إلى المدينة بالكسب العميم. ودخل مصادف على مولاه ومعه كيسان في كل منهما ألف دينار. وقال: جعلت فداك. هذا رأس المال وهذا الربح.

قال الصادق: إن هذا الربح كثير. ماذا صنعتم؟ فحدثه كيف سألوا وكيف توافقوا. وكيف باعوا.

قال الصادق: سبحان اله تحلفون بالله على قوم ألا تبيعوا أو يربح الدينار دينارا!

ثم أخذ واحدا من الكيسين فقال: هذا رأس مالي ولا حاجة لنا في الربح. ثم قال: "يا مصادف. مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال".

هكذا بورك لمصر في متاع الإمام. لكن الإمام لم يقبض درهما من أموال مصر. أن قد أساء البيع الوكلاء. مذ كانوا محتكرين. ولا "يحتكر إلا خاطئ". وهذا أول الدروس. وهي كثيرة. منها أن زيادة الجهد واجبة عند كثرة العيال. وأن ترك ما فيه شبهة هو الحق، وأن النظر إلى الأمة كلها واجب. وهو أوجب على العلماء والرعاة.

كان إذا جاع الناس صنع صنيع آبائه فأخذ جرابا فيه الخبز واللحم والدراهم على عاتقه، فذهب إلى ذوي الحاجات من أهل المدينة فقسمها فيهم وهم لا يعرفونه، حتى إذا مات افتقدوه فعلموا أنه "الإمام الصادق".

وما جاع قادر إلا ذكر البطون الخاوية.

وفي سعة أرزاق الحمقى عبرة للعقلاء. يقول الإمام: "إن الله تعالى وسع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء ويعلموا أن الدنيا لا ينال ما فيها بعمل ولا حيلة".

و"كم من طالب للدنيا لم يدركها. ومدرك لها قد فارقها. فلا يشغلنك طلبها عن عملك. والتمسها من معطيها. ومالكها. فكم من حريص على الدنيا قد صرعت.. ما الدنيا؟ هل الدنيا إلا أكل أكلته أو ثوب لبسته. أو مركب ركبته؟".

ولا تعاب القلة وإنما تعاب الرذيلة. ومنها التظاهر والإعلان الكاذب. والصدق صفة المتعاملين مع الله، والقليل مع الصدق كثير. ومن ثمة بركات الله، في النفس والعقل والمال، للصادقين.

والصادق يعد بهذا كله في كلمته الجامعة: "من أراد الله بالقليل من عمله أظهر الله منه أكثر مما أراد".

يقول لمن ساعد – بغير أجر – في عمل لم يجد صاحبه مالا ليكري من يساعده فيه: "أما أنك إن تساعد أخاك أحب إلي من طواف أسبوع في البيت".

وترى من ذلك بروز "العمل الصالح" في أبواب العبادة وتقديمه بين النوافل.

والصادق يخصص بعض ما له للإصلاح أيا كان وجهه.

تشاجر رجلان على ميراث فمر بهما المفضل بن عمر – صاحب الإمام – فدعاهما إلى منزله فأصلح بينهما بأربعمائة دينار من جيبه، حتى إذا استوثق كل منهم من صاحبه، قال المفضل: إنها ليست من مالي إن الإمام أمرني إذا رأيت اثنين من أصحابنا يتنازعان أن أصلح بينهما من ماله.

obeikandl.com

المال

هذه القوة الكبرى للإنتاج وهي العمل، تعاونها قوة أخرى هي المال شريطة أن يستعمل. فإذا لم يستعمل تنقصته الزكاة عاما بعد عام حتى تقضي عليه. ومن أجل ذلك صار مباحا الاتجار في مال اليتيم لحسابه حتى لا يأكله الزمن – وإنما يستعمل المال في التجارة وفي الصناعة والزراعة وسائر الوجوه. فلا يكنز ولا يؤخذ عليه ربا، بل يتواصل المسلمون فيه بالمعروف.

سئل الصادق: لم حرم الله الربا؟ وأجاب: "لئلا يتمانع الناس المعروف". والمعروف مطلوب في العلاقات العادية والمالية وبين جميع المتعاملين، في القروض ونظرة الميسرة أو المشاركة في مخاطر الاتجار أو الاستصناع والمزارعة والخدمات،وسواها، لتجري الأرزاق لهم، من الله، على أيديهم.

وأول الواجبات في المال أن يكون أداة تعمير للدنيا باستثماره، وللأنفس بمشاركة المحتاجين إليه، سواء للعمل به أو للعيش منه. وألا يكون وسيلة للاستعلاء وإنما وسيلة للتواصل. يتأدى بها المسلم إلى العمل الصالح. ومن الأوليات في هذه الواجبات الاقتصاد والترفق:

يقول الإمام: "أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق. والرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال". والرفق لا يعجز عن شئ والتبذير لا يبقى معه شئ.

وفي القليل كفاية مع القناعة. والكثير لا يغني مع السرف.

وفي المعنى ذاته يقول الصادق: "ضمنت لمن اقتصد ألا يفتقر" وإنما يفتقر من يتجاوز الحدود، ويبعثر قواه، ويخسر أشياءه.

وبالرفق في الأمور تجري الحياة بين الناس على نسق مقبول. يقول الإمام: "من كان رفيقا في أمره نال ما يريده من الناس".

والله تعالى يحب الرفق في الأمر كله.

العبادة وإنفاق المال:

يكاد أكثر ما جمع من تعاليم الإمام في الأبواب الاجتماعية والاقتصادية، يتجه بفحواه شطر هذا الوجه من وجوه العبادة.

والله تعالى يصف المتقين في محكم كتابه، في أول صفحاته، بأنهم (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون).

وكل نعمة رزق. يقول عليه الصلاة والسلام: "نعمتان مغبون فيهما أكثر الناس. الصحة والفراغ" فهاتان نعمتان يسأل عنهما الإنسان والإمام يقول: "المعروف زكاة النعم". فالمعروف زكاة واجبة لمجرد الفراغ من التبعات والسلامة من المرض.

* * *

ومن التطبيق الإسلامي للإنفاق ووجوهه المادية والمعنوية يظهر أنه العبادة الإسلامية الشاملة لكل الناس، ولكل شئ ولكل ساعة في الحياة يتاح فيها مد يد بالمودة للغير، بالعطاء أو قبول العطاء، والإقراض أو الاقتراض، ودفع الأذى، أو مجرد المعونة، بالفعل أو القول، أو بالعمل المادي، أو بمجرد الكف عن الأذى، وما إلى ذلك من أبواب التعاون بين أفراد المجتمع. سواء بالمال أو بالسعي أو بالجاه أو بمجرد الاهتمام.

واهتمام المسلم بما أهم المسلم هو الذي يهب المقرور دفئا، والمكروب برءا، والمنكوب طمأنينة.

يقول صاحب الشريعة: "من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم".

ولما حصرت الشريعة الفرائض رحمة من الله بعباده المكلفين، أطلقت المندوبات، لتتيح لهم أن يتطوعوا بالعمل الصالح كيفما قدروا وحيثما وفقوا – وبخاصة في إنفاق المال – ثم أكثرت الحض عليه، ثم جعلته ممكنا للجميع، وفي وجوه النشاط الإنساني جميعها.

يقول الإمام: "ليعن بعضكم بعضا فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: "إن معونة المسلم خير وأعظم أجرا من صيام شهر واعتكافه شهرا في المسجد الحرام" وإياكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول: "ليس لمسلم أن يعسر مسلما. ومن أنظر مسلما أظله الله يوم القيامة بظله حيث لا ظل إلا ظله..".

وذات يوم قال رجل: إن بيني وبين رجل منازعة في أمر وإني أريد أن أتركه فيقال لي إن تركك ذلة. فقال الإمام: "إن الذليل هو الظالم". فهو لا يرى الترك عيبا إنما العيب بالظلم، أيا كان مصدره، التارك أو المتروك له.

ودخل عليه عمار الساباطي فقال له: "يا عمار إنك رب مال كثير فتؤدي ما افترض عليك الله من الزكاة؟ قال: نعم. قال: فتخرج الحق المعلوم من مالك؟ قال: نعم. قال: يا عمار إن المال يفنى. والبدن يبلى. والعمل يبقى. والديان حي لا يموت. يا عمار. ما قدمت فلم يسبقك. وما أخرت فلن يلحقك".

والأيادي قروض، والإمام يعد بالرد المضاعف، ويعلن فضل من أعطى، ويؤثر عليه فضل الآخذ. والعرف لا يذهب بين الله والناس.

قال له تلميذ: إني لا أتغذى أو أتعشى إلا ومعي اثنان أو ثلاثة. أو أكثر. فأرضاه الإمام بالجزاء الموعود، وأعلن له أن فضلهم يفوق فضله. قال: "فضلهم عليك أكث رمن فضلك عليهم. إذا دخلوا عليك دخلوا بالرزق الكثير"(١٣٣).

* * *

والإمام يحض على دوام التواصل، إذ يجعل النعمة التي يخولها المعطي للاخذ نعمة تتكرر إذ تشكر، لتتكرر. يقول: "اشكر من أنعم عليك. وأنعم على من شكرك. فإنه لا إزالة لها إذا شكرت ولا إقالة لها إذا كفرت".

والبخل قبض القادر يده عن العطاء ونفسه عن الأمل. فذلك داء البخلاء. والإمام الذي يوجب السخاء عند إقبال الدنيا وحين يفيض الخير، يوجب الرجاء والصبر عند إدبارها. فالدنيا تدور. يقول: "عجبت لمن يبخل بالدنيا وهي مقبلة عليه أو يبخل بها وهي مدبرة عنه. فلا الإنفاق مع الإقبال يضره. ولا الإمساك مع الإدبار ينفعه".

ففيم يقف البخلاء دورة المال أو نعمة الرجاء!

والصادق يروي عن جده "قيل: يا نبي الله. أفي المال حق سوى الزكاة! قال: نعم. بر الرحم إذا أدبرت. وصلة الجار المسلم. فما أقر بي شبعان وجاره المسلم جائع. ثم قال: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه".

وفي كل مشاركة فضل، يقول صفوان بن يحيى – من أصحاب الإمام الكاظم – جاءني عبد الله بن سنان قال: هل عندك شئ؟ قلت: نعم فبعثت ابني يشتري لحما بدرهم فقال: أين

---

(١٣٣) قارن هذا المجتمع الإسلامي الذي يقول فقهاؤه "ما المعطي عن سعة بأفضل من الآخذ لو كان محتاجا" بالمجتمع الإنجليزي الذي جاء بعد ذلك بقرون سبعة في عصر الملكة اليزابيث (١٥٥٨ – ١٦٠٣) وفيه صدرت قوانين بإعدام المتسولين وأعدم به االمئات.

أرسلت ابنك؟ فأخبرته. فقال: رده. عندك زيت؟ قلت: نعم. قال: هات فإني سمعت أبا عبد الله "الصادق" يقول: "هلك امرؤ احتقر لأخيه ما يحضره. وهلك امرؤ احتقر لأخيه ما قدمه إليه".

والجود بالموجود جود. وفي التكليف رهق. وفي كل إرهاق أذى. والسمح لا يؤذي، ولا يحس الأذى فيما هو طبيعي. ومن السماحة في الأخذ والعطاء ينتشر التواصل، بأي شئ وفي كل شئ.

فالإمام لا يتكلف لأحد.. ويعلن فضل الطاعم صاحب الطعام. قال هشام بن سالم: دخلنا على أبي عبد الله ونحن جماعة. فتغدينا وتغدى معنا. وكنت أحدث القوم سنا. فكنت أقصر وأنا آكل فقال لي: "كل أما علمت أنه تعرف مودة الرجل لأخيه بأكله طعامه".

يقول الإمام لأضيافه: "أشدهم حبا أكثرهم أكلا عندنا".

وكانت "عين زياد" ضيعة له فجعلها له وللناس. يأمر وكيله بأن يثلم في كل حيطان الضيعة ثلما ليدخل الناس فيأكلوا. ويأمر كل يوم بعشر ثبنات يقعد على كل واحدة منها عشرة يطعمون. كلما قام عشرة جاء عشرة. يلقي لكل منهم بعض الرطب. أما الذين لا يجيئون من جيران الضيعة فلكل منهم مد يرسل إليه، حتى إذا جاء أوان قطع الثمار أعطى الوكلاء العمال أجورهم وأمر الإمام بالباقي فحمل إلى المدينة ففرق في أهلها،كل حسب استحقاقه.

يقول ابن أبي طيفور: رأيت عند أبي عبد الله ضيفا فقام يوما في بعض حوائجه فنهاه وقام بنفسه إلى هذه الحاجة وقال: "نهى رسول الله عن استخدام الضيف".

أداء حقوق الآخرين في المال:

وإذا واسى الصادق أعطى فأغنى. سأله فقير فأعطاه ألف درهم فلما مضى الرجل أمر خادمه ليرجعه. قال الخادم: يا سيدي سئلت فأعطيت. فماذا بعد العطاء؟ قال: قال رسول الله ﷺ: "خير الصدقة ما أبقت غنى" وقال للرجل: "إنا لم نغنك. فخذ هذا الخاتم فقد أعطيت فيه عشرة آلاف درهم".

ولامرية في أنه لم يغن الرجل ليأكل، وإنما أغناه بالمال ليعمل به. فالعطاء ليس طعاما يعطى وإنما هو فرصة عمل بالتعبير الاقتصادي المعاصر. أي تمكين من أداة إنتاج تحفظ إنسانية الإنسان وتزيد ثراء الجماعة.

والعطاء وفاء بحقوق. وليس مجرد أريحية. فأمير المؤمنين علي هو القائل: "إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم ما يكفي الفقراء فإن جاعوا أو عروا فبظلم الأغنياء" والقائل: "الفقر هو الموت الأكبر".

وسئل الباقر عن الزكاة تجب في مواضع لا يتمكن السائل من أدائها فيها فأجاب: "اعزلها فإن اتجرت بها فأنت لها ضامن. ولها الربح".

ويقول الصادق: "إن الله عز وجل فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم – ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم. إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عز وجل.. ولكن أتوا من منعهم حقهم. ولو أن الناس أدوا حقوقهم كانوا عايشين بخير".

وبنص عنه: "إن الله تبارك وتعالى شرك بين الفقراء والأغنياء في الأموال. فليس لهم أن يصرفوا إلى غير شركائهم".

وعلى أساس هذه النصوص يتساءل الفقهاء: هل الفقير "شريك" في ملك العين "في خصوص الزكاة"، أو أن له "مجرد حق" فيها. فالبعض على أنه شريك بمقدار حصته، والبعض على أنه صاحب حق فيها وهو مقدار نصيبه. وصاحب النصيب من لا يملك مئونة سنة ل ولعياله. والأغنياء من يملكون ذلك المقدار.

يقول الإمام الصادق: "تحرم الزكاة على من لا يملك قوت سنة".

ولا يدع الإمام الناس، فقراء أو أغنياء، دون تنبيههم على أصل الداء، وهو الطمع. فيعالنهم بمقولة من موقولاته. التي تتناقلها الأجيال: "إن كان ما يكفيك لا يغنيك فكل ما فيها لا يغنيك".

* * *

ولحقوق الفقراء على الأغنياء عند الشيعة مصدر آخر زاخر، فوق مصدر الزكاة، وهو خمس المكاسب. والله تعالى يقول: (واعلموا أن ما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل).

والشيعة تفسر الآية تفسيرا يسع أكثر مال يكتسب. غذ يدخل فيه خمس أرباح التجارات والصناعات والإجارات والعمل والوظائف والهدية والوصية وأرباح مالك المنجم والمدخرات من الكسب الحرام إذا اختلط بالحلال ولم يتميز. فإن تميز أخرج كله. واللؤلؤ المستخرج والمواريث التي لم يؤد عنها الخمس. وذلك بعد أن يستنزل المكلف مئونة الحفظ ومئونة الذين يعولهم ومركبه ومسكنه ونفقات أضيافه لمدة سنة كاملة، وما زاد عن ذلك ففيه الخمس.

كتب رجل إلى الإمام الباقر: أخبرني عن الخمس أهو على جميع ما يستفيده الرجل من قليل أو كثير.. وكيف ذلك؟ فكتب الإمام بخطه: "الخمس بعد المئونة".

ولا يحمل الخمس إلى غير بلده إلا مع عدم وجود المستحق فيه. ويجوز أن تخص به طائفة واحدة. والأحوط قسمته.

والفقهاء يقررون أن للإمام نصف الخمس وأن نصفه الباقي ليتامى آل النبي ومساكينهم وفقرائهم وأبناء السبيل منهم.

والآن – حيث الإمام غائب – فالأقوال كثيرة في توزيع حق الإمام. وربما جاز من تعددها اختيار الإنفاق على المصالح التي تحفظ للأمة دينها وشريعتها.

والرسول عليه الصلاة والسلام يكلف المسلمين أني قصدوا بالبر الفقراء، وأن يتطهروا بين الفقراء، ويتقوا الله تقوى الفقراء، يقول ﷺ: "من أراد الله فليطلبه عند الفقراء".

كنز المال

أمير المؤمنين علي هو الذي ذكر عمر بخثور نفس رسول الله حتى وزع مالا كان عنده. وأعلن ساعة استخلافه أن الدولة ليس لها في المال إلا أن تقسمه في المسلمين متساويين – فرقى المنبر يقول للمسلمين عن نفسه: ".. ألا وإنه ليس لي دونكم إلا مفاتيح أموالكم معي. وليس لي أن آخذ درهما دونكم".

جئ ذات مساء بمال أفاءه الله على المسلمين،فأشار إليه وقال: اقسموه. قالوا: أمسينا فأخره إلى غد. قال: تضمنون لي أن أعيش إلى غد؟ قالوا: ما بأديينا ذلك. قال: فلا تؤخروه. فقسموه من فورهم.

ولما بعث أبو موسى إلى عمر من العراق ألف ألف درهم فرقها ففضلت فضلة فاختلفوا أين يضعها خطب عمر الناس قائلا: أيها الناس قد فضلت لكم فضلة بعد حقوق الناس. فقام صعصعة – وهو بعد غلام شاب أسلم في حياة النبي ولم يره – وقال: "يا أمير المؤمنين إنما يتشاور الناس فيما لم ينزل فيه قرآن. وأما ما نزل به قرآن فضعه مواضعه التي وضعه الله عز وجل فيها". فقال عمر: "صدقت. أنتي مني وأنا منك". فقسمه بين المسلمين.

وصعصعة – كما أسلفنا – بطل "يوم الجمل" إلى جوار أمير المؤمنين علي. استشهد أخواه وهما يحملان الراية. ثم حملها صعصعة وانتصر.

وأبو ذر أب من آباء الشيعة العظماء، وسيرته درس تحتفي به مجالسهم وأمالي كبرائهم. ينبه الناس من قديم على خطر الفقر واقترانه بالكفر. وتعريضهما العقيدة والوطنية ووحدة الجماعة للدمار، فيقول: "إذا ذهب الفقر إلى بلد. قال الكفر خذني معك".

ولقد حرم كنز المال بحبسه عن المسلمين في بيوت الأموال، أو حرمانهم منه وتعريضهم للافتقار، فأوجب على الدولة توزيع المال في أصحاب الحق فيه من الرعية، وحرم النعيم على من يعيش بين الجياع. فإذا كان إخوة المسلم في عيشة راضية فالنعيم يباح.

ولما أرسل إليه عثمان مائتي دينار مع رسول يقول: هذه من مال عثمان. وهو يقول لك إنها من صلب ماله ما خالطها حرام. قال أبو ذر: هل أعطى أحدا من المسلمين مثلما أعطاني؟ قال: كلا. قال: اذهب أنت والدراهم. إنما أنا رجل من المسلمين يسعني ما يسعهم. ولست في حاجة إلى المال. قال الرسول: أصلحك الله إني لا أرى في بيتك قليلا ولا كثيرا. فرفع أبو ذر الوسادة وأراه قرصين من خبز الشعير وقال: بل عندي هذان وإني لغني بهما وثقتي بالله.

ومر أبو ذر بمعاوية وهو يبني داره الخضراء فصاح به: "من أين لك هذا؟ إن كنت بنيتها من مال المسلمين فهي الخيانة. وإن كنت بنيتها من مالك فهي الإسراف". فشكاه معاوية إلى عثمان.

وظاهر من هذا النهج، النحو الاقتصادي الذي ينحوه الشيعة من تداول المال، وعدم كنزه عن الأمة ولو كان في يد الدولة، ووجوب تقسيمه في المسلمين أو العمل به لهم. والاستكثار من طرحه في التداول(١٣٤)، وإنفاق الخمس الذي يجبى للإمام.

وإذا أضفنا إلى ضخامة نسبة الخمس، تحصيله عن أكثر الكسب، وتيسير حسابه على العاملين على الصدقات، والدافعين للزكوات، والإنفاق الواجب والمندوب، وإلزام القادر العمل بنفسه وبماله، ومعونة المستحقين للعون بالمال دون ربا، مع نظرة الميسرة، ومع التواصل حيثما

---

(١٣٤) روى المسعودي في مروج الذهب حادث أبي ذر وكعب الأحبار في مجلس أمير المؤمنين عثمان بن عفان. قال: إن أبا ذر كان في مجلس الخليفة حين "أتى بتركة عبد الرحمن بن عوف فنضت البدر حتى حالت بين عثمان والرجل القائم. فقال عثمان: إني لأرجو لعبد الرحمن خيرا لأنه كان يتصدق ويقري الضيف وترك ما ترون وقال كعب الأحبار: صدقت يا أمير المؤمنين. فشال أبو ذر العصا وضرب بها رأس كعب. وقال: يا ابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة وتقطع على الله عهدا بذلك! وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما يسرني أن أموت وأدع ما يزن قيراطا".. وقال عثمان لأبي ذر: وار عني وجهك".

قدر القادرون، واحتاج غير القادرين، يتجلى مبلغ ما تتفتح الميادين الواسعة أمام الجهد الإنساني في المجتمع الإسلامي لتثمير ثرائه وإغناء فقرائه، وإيلاف أنفس المسلمين فيه.

ذلك قول الإمام جعفر: "لو أدى الناس زكاة أموالهم ما بات مسلم فقيرا".

التعاون

العنصر الثالث في الاقتصاد – كما هو ظاهر من تعاليم الإمام في فصول هذا الباب – هو التعاون. وليس كمثله "منظم داخلي" أو "محرك ذاتي" للنشاط الفردي أو القومي.

ولقد مر بنا أنه واجب "قانوني" يخرج من الإيمان من بات شبعان وجاره جائع.

كما أسلفنا القواعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شرعها الإسلام وشرحها الإمام، ليخلف للأمة منهاجه الذي اعتزت به الأمة فبلغت شأوها العالي بالمنهج العلمي، العصري أبدا، والمنهج الاجتماعي الذي جعلها كالبنيان المرصوص، والمنهج الاقتصادي الذي يستعمل العلم والعمل والمال في تعاون مأمور به، أي في تكافل كامل.

ولئن مرت بها فترات مظلمة، إن مردها إلى الخروج على قواعد المنهج، وإنما عصمتها في الرجوع إلى الأمر الأول.